



المكتبة الأكاديمية
مركز تعليمية مصر
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
Certificate No.: 82210
03/05/2001

المرأة

في حديث القرآن الكريم

obeikandi.com



في حديث القرآن الكريم

فضيلة الشيخ

محمد الراوي



الناشر

المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

٢٠٠٨

حقوق النشر

الطبعة الاولى ٢٠٠٨م-١٤٢٨هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناسر :

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصرر وللنوع ٧,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : ٣٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناسر .



بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ.

وبعد..

فقد كَثُرَ الذينَ يُظهرونَ اهتمامَهُم بِقضيةِ المراةِ في شرقٍ وغربٍ، مع اختلافِ الدوافعِ، وتباينِ الغاياتِ.

كُلٌّ يَدْعِي تكريمها، وَيُظهرُ الحفاوةَ بِشأنِها !

وَلَمْ تَسْلَمْ قضيةُ المراةِ - كغيرها - من تلبيسٍ، وَغشٍ، وَخداعٍ.

وَلَمْ تَسْلَمْ - هي نفسها - من عَبَثِ العاشقين، وَخداعِ المُفسدين.

وَلَا بُدَّ من ميزانٍ صادقٍ تُوزَنُ به أحوالُ الناسِ، وَيُعرفُ المُبطلُ من المُحقِّ، وَيتميزُ المُفسدُ من المُصلحِ.

ولو تُرِكَ الأمرُ لتقديرِ الناسِ لَعَلَبِ الضَّعْفِ، وَتَحَكُّمِ الهوى، وَظهرتِ الأنايةُ.

وعندئذٍ تضيعُ الواجباتُ، وَتُهدَرُ الحقوقُ.

ومن رحمةِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَنْ أُرسلَ إليهم الرسلَ بِالْبَيِّنَاتِ، وَأُنزلَ معهم الكتابَ والميزانَ؛ ليقومَ الناسُ بِالْقِسْطِ.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ

النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ ﴾ ^ط (١)

(١) الحديد: من الآية ٢٥.

بميزان الله تُوزَنُ الأمورُ. وعلى نور الكتاب تُبَصَّرُ الحقائق، وتُعرَفُ العواقب، وتُسَمَّى الأشياءُ بأسمائها الصحيحة، ويُصَفُ الرجلُ والمرأةُ، والكبيرُ والصغيرُ، والغنيُّ والفقرُ، والحاكمُ والمحكومُ؛ لأن الله غنيٌّ عن العالمين، وقد أحاطَ بِكُلِّ شيءٍ علماً، لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليه، يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فميزانه هو الميزان، وحكمه هو الحقُّ.

ولا يَرَفُضُ حُكْمَ الله إِلَّا صاحبُ هوى، يُريدُ أن يُضِلَّ ويُفسد.

ولا يأبى شرعَ الله إِلَّا منافقٌ، يُظهرُ إيماناً، ويُطنُّ كفرًا.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْخَاقِ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿١٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴿٢١﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٣)

لذا فلن يكون حديثنا عن المراة إلا من القرآن الكريم، وبيانه من السنة الصحيحة.

ولن تُقَارَنَ بين ما كانت عليه المرأة قبل الإسلام، وما صارت إليه بعيداً عنه.

ولن يَسْتَحِفَّنَا غيرُ مُوقِنٍ بدينِ الله، أو مفتونٌ بزينةِ الحياة الدنيا.

﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ (١)

دينُ الله باقٍ، وهو الحقُّ. والجنُّ والإنسُ يموتون، والله حيٌّ لا يموت.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَى بِهِ

بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۖ ﴾ (٢)

أخي المسلم: سأَقِفُ معك أمامَ آيةٍ من كتاب الله، نرى فيها التَّكْرِمَ للرجل والمرأة جميعاً، ونرى المساواة فيما يَتَّفَقُ مع فطرةِ كُلِّ منهما.

مساواة فيما يُحَقِّقُ الفضلَ والشَّرَفَ، ولا يُهْمِلُ الصِّفَةَ التي خُلِقَت المرأة عليها.

فإنه من السَّخَرِيَّةِ بالعقول، والاستخفافِ بالحقائق، أن تُطْلَقَ كلمةُ (المساواة) دونَ مراعاةِ للصِّفَةِ التي خُلِقَ عليها الرجلُ، وخُلِقَت عليها المرأةُ؛ فإن المساواة المطلقة - في كُلِّ شيءٍ - يرفضها العقلُ، ويأبأها الشرعُ، وتُنكرها فطرةُ الخلقِ.

أعوذُ بالله من الشيطانِ الرَّجِيمِ:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ

وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

(١) الرعد: من الآية ١٧.

(٢) الفرقان: ٥٨.

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١﴾

عَشْرُ صِفَاتٍ يُوصَفُ بِهَا الرَّجُلُ، وَتُوصَفُ بِهَا الْمَرْأَةُ.

كُلُّ صِفَةٍ تَقْتَرِنُ بِحَقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ لَا يُوصَفُ بِهَا مَنْ أَهْمَلَهَا أَوْ ضَيَّعَهَا.

فَلَا يُوصَفُ بِالْإِسْلَامِ إِلَّا مَنْ أَقَامَ فَرَائِضَهُ وَلَمْ يُضَيِّعْ، وَتَمَسَّكَ بِهِ وَلَمْ يَرْتَد.

رَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَا
نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » (٢)

الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فِي ذَلِكَ سَوَاء. فِي طَلَبِ الرَّفْعَةِ، وَالتَّطَهُّرِ، وَالْعِبَادَةِ، وَالسَّلُوكِ
النَّظِيفِ فِي الْحَيَاةِ.

وَلِلْمَرْأَةِ مَكَائِهَا إِلَى جَانِبِ الرَّجُلِ، وَلَهَا مَكَائِثُهَا بِمَا تُحَرِّزُهُ مِنْ صِفَاتٍ، وَمَا
تُحَقِّقُهُ مِنْ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ.

وَقَدْ تَفَوَّقَهُ إِنْ أَرَادَتْ. بِخَشْيَتِهَا، وَمِرَاقِبَةِ رَبِّهَا، وَالْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا.

فَلِنَقْرَأْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَلِنَعْمَلَ عَلَى تَحْقِيقِهَا فِي حَيَاةِ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ؛ لِنَحْظِيَ - جَمِيعًا - بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِهَؤُلَاءِ ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

(١) الأحزاب: ٣٥.

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ رقم ٤٣٤٨.



أخي المسلم:

المراة في حديث القرآن الكريم لها شأن، وهي مُطالِبَةٌ بما يُطالَبُ به الرجلُ من التكاليف، إلّا ما كان شاقاً على فطرتها.
فهي تُجاهدُ جهاداً لا شوكةَ فيه.

وَتُكَلَّفُ من الأعمال بما تطيق، بلا عُسْرٍ ولا حَرَجٍ.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(١)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ^(٢)

وما بُنيَ الإسلامُ عليه ثُومَرُ به، كما يُؤمَرُ الرجلُ «بُنيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» ^(٣)

وجميعُ الأعمال تُؤجَرُ عليها، كما يُؤجَرُ الرجلُ. وتفاوتت الدرجات مبني على صِدْقِ الإخلاص، وموافقة الشرع ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٤)

(١) البقرة: من الآية ٢٨٦.

(٢) البقرة: من الآية ١٨٥.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم ٢١.

(٤) النحل: ٩٧.

وفي حديث سابق تَلَوْنَا الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ
وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١)

وَنُودُ أَنْ تَقِفَ - وقفة يسيرة - عند كُلِّ صفةٍ من هذه الصفات (الإسلام،
والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ
الفروج، وذكر الله)

فإنَّ لكلِّ منها أثرًا بالغًا في حياة الفرد - رجلًا كان أو امرأة - وفي حياة المجتمع.
بل لها نتائجها في العاجلة وفي الآخرة.

ولقد سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ في حديث جبريل عليه السلام حين قال: « يَا مُحَمَّدُ،
أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ
مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ
إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي
عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ
بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ » (٢)

(١) الأحزاب: ٣٥.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٩.

فَسَرَّ الرَسُولُ ﷺ الْإِسْلَامَ بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ. فَجَمِيعُ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمًى (الْإِسْلَامِ)، وَتِلْكَ أَصُولُهَا الَّتِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا. وَأَمَّا (الْإِيمَانُ) فَقَدْ فَسَّرَهُ الرَسُولُ ﷺ بِالْإِعْتِقَادَاتِ الْبَاطِنَةِ.

وَأَوْدُ أَنْ نَعْرِفَ - هُنَا - أَنْ أَحَدَ الْأَسْمِينَ (الْإِسْلَامَ، وَالْإِيمَانُ) إِذَا أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ دَلَّ انْفِرَادَهُ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْآخَرُ، وَإِذَا قُرِنَ بَيْنَهُمَا - كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ الَّذِي أَشْرَفَتْ إِلَيْهِ - فَسَرَّ الْإِسْلَامَ بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالْإِيمَانُ بِالْإِعْتِقَادَاتِ الْبَاطِنَةِ.

وَلِذَلِكَ نَرَى الرَسُولَ ﷺ حِينَمَا سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ مُفْرَدًا، أَجَابَ بِمَا فَسَّرَ بِهِ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ مَعًا، كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ. وَكَذَلِكَ عِنْدَمَا سُئِلَ عَنِ الْإِسْلَامِ مُفْرَدًا. وَبِذَا يُعْرَفُ أَنَّهُ: إِذَا أُفْرِدَ كُلُّ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ بِالذِّكْرِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ قُرِنَ بَيْنَ الْأَسْمِينَ، كَانَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ: تَصْدِيقُ الْقَلْبِ وَإِقْرَارُهُ وَمَعْرِفَتُهُ. وَالْإِسْلَامَ هُوَ: اسْتِسْلَامُ الْعَبْدِ لِلَّهِ، وَخُضُوعُهُ وَانْقِيَادُهُ.

وَبِذَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ - بِلَا تَعَارُضٍ - مَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنِ السَّلَفِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ، وَمَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعِينَ مِنْ أَنَّ « الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمًى الْإِيمَانِ ».

وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَتُبَيَّنَتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ.

قَالَ تَعَالَى: « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «الإيمانُ بضْعٌ
وسَبْعُونَ - أوِ بضْعٌ وسِتُونَ - شُعْبَةٌ، فأفضلُها قولُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأدناها إمَاطَةُ الأَذَى
عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» (٢)

وكتبَ عمرُ بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهلِ الأمصار يقول: «أما بعدُ، فإنَّ الإيمانَ
فرائضُ وشرائع. مَنْ استكملها استكملَ الإيمانَ، وَمَنْ لم يستكملها لم يستكمل الإيمانَ»

أخي المسلم: الإسلامُ والإيمانُ صِفَتانِ ترتبطان بأعمالٍ صالحةٍ ينضبطُ بها سُلوكُ
الإنسان، وتُصانُ الجماعةُ من جُمُوحِ الهوى ونزغاتِ الشياطين.

وبحالِ التنافسِ مفتوحٍ لِمَنْ كان ذا هِمَّةٍ عاليةٍ، وحكمةٍ راشدةٍ.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٣)

تنافسٌ على مرضاتِ الله بتحقيق ما أوجبه الإسلامُ، وما يفرضه الإيمانُ.

وبه تُصانُ المرأةُ من عَثِّ العابثين، وخداعِ المفسدين، الذين يريدون لها مساواةً
في غير مساواةٍ، ويطلبونها لأهوائِهِم وشهواتِهِم، قبل أن يطلبوها أُمًّا لمجتمعٍ كريمٍ.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١)

(١) الأنفال: ٢ - ٤.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم ٥١.

(٣) المطففين: من الآية ٢٦.



أخي المسلم:

حديثُ القرآنِ حَرِيٌّ أَنْ يُسْتَمَعَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ، وَأَنْ يُعْمَلَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ
حديثُ الخالقِ عَمَّنْ خَلَقَ، وَأَمْرُ الخالقِ بِمَا يُصْلِحُ خَلْقَهُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ﴾ (١)

وقد أنزل الله هذا الحديثَ على نبيه ﷺ؛ ليكونَ هُدىً للناسِ، وتبصرةً لهم في
جميعِ أحوالهم ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢)

فلنستمع إلى حديثِ القرآنِ عن المرأةِ وهو يجمعُ بينها وبين الرجلِ في مساواةٍ
فطريةٍ، في فضائلِ الأعمالِ، لا فيما لا تصلحُ فيه المساواةُ مما يريدُه العابثونَ أو
المفسدونَ، من قيامها بأعمالٍ تَفْقِدُ فيها أُمُومَتَها، وأُنُوثَتَها، وكرامَتَها، وينالُ الأسرةَ
من الضياعِ بقَدْرِ ما ينالُ المرأةُ من إهدارٍ لقيمتِها، أو نسيانٍ لرسالتها.

فلنستمع إلى حديثِ القرآنِ للرجالِ والنساءِ جميعاً؛ ففيه إعلاءٌ للناسِ جميعاً.
إِعْلَاءٌ لِمَنْ اتَّبَعَ، وَخَسَارَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ.

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الملك: ١٤.

(٣) الزمر: ٢٣.

﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (٢)

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٣)

وذاك حديث القرآن عن الرجل والمرأة: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِغِينَ وَالصَّامِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَلَلَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤)

وفي حديث سابق تحدثنا عن الإسلام والإيمان، وما يجب علينا لتحقيق ما أوجبه الإسلام، وفرضه الإيمان.

واليوم نتحدث عن القنوت ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ﴾

والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

والكون كُله خاضع لله بفطرته.

(١) طه: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) فصلت: من الآية ٤٤.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلٌّ لَّهُ قَنِينٌ ۚ ﴾ (٢) ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلٌّ لَّهُ قَنِينٌ ﴾ (٣)

وهذا الخضوع الفطريُّ يوحي للإنسان أن يخضع بإرادته لما أمر به، أو يُهيَّ عنه. وكثيراً ما يتحدث القرآن الكريم عن خضوع الكون لله، وتسخير الإنسان، كثيراً ما يذكر دعوة الإنسان إلى الاستقامة على الفطرة، والطاعة لرَبِّه، وعدم الإفساد في الأرض.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥) ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦)

لقد أمرنا بلزوم الطاعة لله، والخضوع له فيما أمرنا به أو نهانا عنه؛ لتتساق إرادتنا مع فطرة الكون الذي لا يندُّ شيء فيه عن طاعة ربِّه.

(١) يس: ٤٠.

(٢) البقرة: ١١٦.

(٣) الروم: ٢٦.

(٤) الأعراف: ٥٤ - ٥٦.

﴿ كُلُّ لَّهُ، فَتَنْتُونَ ﴾

﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِتِينَ ﴾ (١)

والقنوت صفة يُمدحُ بها الرجلُ، كما تُمدحُ بها المرأةُ حينَ تشتغلُ بعبادةِ ربِّها، وتُخلصُ القصدَ له.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ ﴾ (٣)

﴿ وَالْقَنِتَتَيْنِ وَالْقَنِتَتِ ﴾ وُصفوا بذلك؛ لاشتغالهم بعبادةِ الله وحده، ورَفْضِهِمْ كُلَّ ما سواه. أمسكتُ ألسنتهم عن اللغو، واشتغلت بذكرِ الله، فَنَالَتْ من الأجرِ وطِيبِ الذِّكْرِ ما جعلها تُذَكَّرُ بالفضلِ في الأولينِ والآخرين.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَاتَاءَ آلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٤)

والمرأةُ الصالحةُ تُوصَفُ بالقنوتِ لزوجها، طاعةً لربِّها.

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) النحل: ١٢٠.

(٣) التحريم: ١٢.

(٤) الزمر: ٩.

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (١)
﴿ قَانِتَاتٌ ﴾ مطيعات لأزواجهن.

﴿ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ تحفظ زوجها - في غيبته - في نفسها وماله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّسَاءِ خَيْرٌ ؟ قَالَ: الَّتِي تَسْرُدُ إِذَا نَظَرَ، وَتُصْبِعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ » (٢)
﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أي: يحفظ الله لهن.

والحفوظ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ. والسييلُ إلى حفظ الله أَنْ تحفظ حدوده وأوامره ونواهيه، بأن تقفَ عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا تتجاوز ما أمَرَ به وأذن فيه إلى ما نهى عنه. فَمَنْ فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله. وَمَنْ حَفِظَ اللَّهُ حَفِظَهُ، وَمَنْ حَفِظَ اللَّهُ وَجَدَهُ.

« احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ » (٣)

« احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ » (٤)

ذاك هو السَّيْلُ لِحِفْظِ اللَّهِ. وهو السَّيْلُ لمرضاته، وتلك هي الصفاتُ الجديرةُ بأن يتنافس عليها المتنافسون، وأن تأخذ المرأة نفسها بما؛ لتحظى بالمغفرة والأجر العظيم.

(١) النساء: من الآية ٣٤.

(٢) النسائي: كتاب النكاح، باب أي النساء خير، رقم ٣١٧٩.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أحمد: ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، رقم ٢٦٦٦.



أخي المسلم:

مع الآية الكريمة من سورة الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... الآية﴾ وهي الآية الخامسة والثلاثون.

ومع الصفة الرابعة من صفات مَنْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ وَالصَّدَقُ: نَقِيزُ الْكَذِبِ. وَصَدَّقَهُ: قَبِلَ قَوْلَهُ. وَصَدَّقَهُ الْحَدِيثُ: أَثْبَاهُ بِالصَّدَقِ. وَالصَّادِقُ: الْمُصَدَّقُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (١) أَي: مِبَالَعَةً فِي الصَّدَقِ. وَرَجُلٌ صِدْقٌ: نَقِيزُ رَجُلٍ سَوِّءٍ. وَامْرَأَةٌ صَدَقَ كَذَلِكَ.

وَالصَّدَقُ مَطْلُوبٌ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢)

الصدقُ مع الله: فِي النِّيَّةِ، وَالْعَمَلِ.

وَالصَّدَقُ مَعَ النَّفْسِ: فَلَا يَرْضَى بِخُدَاعِهَا، أَوْ الْغَفْلَةِ عَنْ غُيُوبِهَا.

وَالصَّدَقُ مَعَ النَّاسِ: فَلَا يَكْذِبُ، وَلَا يَخْذَعُ.

وَمَنْ لَزِمَ الصَّدَقَ، قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ لَزِمَ الْكَذِبَ، انْتَهَى مَعَهُ إِلَى النَّارِ.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(١) المائدة: من الآية ٧٥.

(٢) التوبة: ١١٩.

« إِنَّ الصَّدُقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكُذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (١)

إن تمسك الناس بالفضائل وحرصهم عليها، هو الذي يُبقي عليهم كمجتمع قوي متماسك، وهو سفينتهم إلى النجاة والفلاح.

وهذه الصفات تحتاج إلى ما يحتاج إليه الصَّاعِدُ من جَهْدٍ وَكَدٍّ. إنما لا تُرَيْنُ للناسِ فَيُقْبَلُونَ عليها؛ حُبًّا في الشهوات والملذات، وإنما هي قيمة باقية يجدها الإنسان في ساعة الشدة ويرضاها؛ رغبة في العاقبة، وإن أثار الناس من حوله زهرة العاجلة.

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ * ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ ﴿١﴾ * قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ ﴿٣﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ ۖ وَالْمُنْفِقِينَ ۖ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۖ ﴾ ﴿٤﴾ (٢)

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله وكونوا مع الصادقين، رقم ٥٦٢٩.

(٢) آل عمران: ١٤ - ١٧.

ذهبت الزينة، وبقيت القيمة. ذهبت القناطيرُ المقنطرة من الذهب والفضة والخيال المسومة والأنعام والحرث. وبقي الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار.

صفات حملت أصحابها إلى جنات تجري من تحتها الأنهار، وتخلفت الزينة عن صاحبها، فلم تؤنس له وحشة في قبر، ولم تُحقق له ثواباً، إلا بإحضارها للباقيات الصالحات.

لذا نرى الرسول ﷺ - من أول أمره - يدعو إلى إبراز خصائص الفطرة في نفس الإنسان؛ ليسمو بإيمانه وفضائله وتقواه، لا بحسبه ولا بنسبه، ولا بعرض من أعراض الحياة.

وبذلك تميّزت صفوف أتباعه، وعرف القريب والبعيد خصائص هذه النفوس، وحكم العارفون بسُنن الله في خلقه بأن أصحاب هذه الصفات مستخلفون ومنتصرون.

هكذا عرف (هرقل) عندما سأل عن رسول الله ﷺ، وما يدعو إليه.

قال لأبي سفيان: « مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ » فقال أبو سفيان: « يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتَّكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ. وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ ».

وظل (هرقل) يسأل وأبو سفيان يجيب، ومن جميع إجابته أدرك (هرقل) ما عليه الرسول ﷺ، وما يدعو إليه من صفات، فقال كلمته: « إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ » (١)

(١) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم ٦.

قال ذلك والرسول ﷺ لم يبرح مكة بعد، ولم يقوَ أصحابه إلى القدر الذي يجعل البعيد يحكم بانتصارهم وتفوقهم، ولكن (هرف) حَكَمَ بما سمع من أخلاق وصفات وأحوال تُحقِّق لأصحابها تفوقاً وانتصاراً على مرَّ الأيام.

« وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ » صفاتٌ تُحقِّق الطمأنينة في النفس، والبرِّ في روابط الأسرة والمجتمع، والأمن في حياة الناس على النفس والمال والعرض.

صفاتٌ يتميَّز بها الناس، وتُعرَفُ أقدارهم. والله من وراء القصد يُحاسبُ على دوافع الأعمال، ويأجر على صدق النية، ولكلِّ امرئٍ ما نوى.

فليس أمام الناس إلاَّ الصدق إنْ هم أرادوا لأنفسهم فوزاً في عاجلِ أمرهم وآجله.

وهل لنا الثلاثة الذين خُلِّفوا إلاَّ بصدقهم ؟

وهل هلك من هلك - من أهل النفاق - إلا بكذبه ؟

وهل نترك قضية الإيمان لدعوى الناس دون ابتلاء يكشف حقيقتهم، ويظهر أمرهم ؟ ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ نَبِيًّا فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ الَّذِي كَذَّبُوا عَنْهُمْ ﴾ (١)

﴿ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ نَبِيًّا فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ الَّذِي كَذَّبُوا عَنْهُمْ ﴾ (١)

فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ (١)

« إِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيَّةٌ » (٢)

(١) العنكبوت: ١-٣.

(٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وكم من مكانة عالية نالها الصادقون بصدق نياتهم، وبلغوا منازل الشهداء وهم على فراشهم.

روى مسلم عن أبي ثابت، سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» (١)

قال (كعب بن مالك) وهو من الثلاثة الذين خُلِفُوا، وتاب الله عليهم، قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدْقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَْتُ» (٢)

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣)

في الحديث المتفق عليه، عن أبي خالد حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» (٤)

الصدقُ صفةٌ يُوصَفُ بها الرجلُ، وتُوصَفُ بها المرأةُ ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾

فهل يعي ذلك دُعَاةَ المساواة، فيطلبون المساواة في فضائل أعمال، لا في تشبه الرجال بالنساء، أو تشبه النساء بالرجال؟

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله، رقم ٣٥٣٢.

(٢) مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٤٩٧٣.

(٣) التوبة: ١١٩.

(٤) البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا، رقم ١٩٣٧.



أخي المسلم:

إِنَّ فَتْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَحْتَاجُ إِلَى (صَبْرٍ)؛ لِلْفَوْزِ فِي امْتِحَانِهَا وَابْتِلَائِهَا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾ (١)

وَتَلَازُمُ الْحَقِّ مَعَ الصَّبْرِ ضَرْوَرِيٌّ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ.

وَالْتَوَاصِي عَلَيْهِمَا مِنْ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ أَسْبَابِ النِّجَاحِ مِنَ الْخُسْرَانِ.

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِيْ خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ (٢)

فِي دَارِ الْإِمْتِحَانِ وَالْإِحْتِبَارِ يُتَلَقَّى الْإِنْسَانُ بِصُفُوفٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَمُتَبَايِنَةٍ مِنْ: الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ.

وَفِي الْمَعَامَلَةِ الْيَوْمِيَّةِ يَلْقَى الْإِنْسَانُ مِنَ النَّاسِ مَا يَرْضَاهُ وَمَا لَا يَرْضَاهُ. ذَاكَ يُحَسِّنُ، وَهَذَا يُسِيءُ.

فِي الْبَيْتِ، وَفِي الشَّارِعِ، وَفِي الْعَمَلِ، وَفِي الْإِقَامَةِ، وَفِي السَّفَرِ، يَلْقَى الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَوَارِضِ - الَّتِي يُمْتَحَنُ بِهَا صَبْرُهُ - الْكَثِيرَ مِمَّا يَضِيقُ بِهِ الصَّدْرُ، أَوْ تَنْشَرِحُ بِهِ النَّفْسُ.

وَكُلُّ عَارِضٍ - مَهْمَا كَانَ نَوْعُهُ - يَحْتَاجُ إِلَى ضَوَابِطِ نَفْسِيَّةٍ تُقَابِلُ الْحَدَثَ بِمَا

(١) محمد: ٣١.

(٢) العصر: ١-٣.

يُنَاسِبُهُ، بَحِثْ لَا تَقْعِ النَّفْسُ صَرِيْعَةً فَرَحٍ مُفْرِطٍ، أَوْ يَأْسٍ مُدْمِرٍ.

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ﴾ (١)

إن الاعتدال في مواجهة الأحداث والعوارض يحتاج إلى (الإيمان بالقدر)، ومع الإيمان بالقدر يقوم الصبر - اختسب في النفس - مقام الجندي المربط، يذود عن حمى النفس، ويجعلها ثابتة في البأساء والضراء، وحين البأس.

والصبر لازم للرجل والمرأة على حد سواء. وبه وُصف الرجل، كما وُصفت المرأة في الآية الجامعة لصفات الخير من الرجال والنساء ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾.

وإن وُجد الوصف للرجال في غير هذه الآية، فهو يعُم الرجال والنساء معاً، وهو من باب (التغليب) لا من باب (الاختصاص) إلا ما دلّ الدليل عليه.

﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بَشَىٰ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشَىٰ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ۝ ﴾ (٢)

هي بُشَى للصَّابِرِينَ والصَّابِرَاتِ؛ لأنَّ المرأة تُبْتَلَى كما يُبْتَلَى الرجل، وتُصاب كما يُصاب، وتُؤَجَّرُ كما يُؤَجَّرُ. وتُؤْمَرُ كما يُؤْمَرُ.

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣.

(٢) البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

في الحديث المتفق عليه، عن أبي زيد أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «أرسلت ابنة^(١) النبي ﷺ إليه إن ابناً لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عند عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتيها، فقام معه سعد بن عباد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتفقع^(٢)، قال: حسبته أنه قال: كأنها شئ^(٣)، ففاضت^(٤) عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟^(٥) فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء^(٦)»

وفي رواية: «قال: هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء^(٧)»

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري. قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيتي.

(١) قال الحافظ: هي زينب. وفي رواية: «أبي رسول الله ﷺ بأيممة ابنة زينب ونفسها تتفقع» أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد، رقم ٢٠٧٨٠.

(٢) تفقع: أي تضطرب تتحرك ولا تثبت على حالة واحدة. وفي رواية: «فأقعده في حجره ونفس الصبي جئت» البخاري: كتاب الإيمان والنذور، باب قول الله تعالى: وأقسموا بالله جهد أيمانهم، رقم ٦١٦٣. وفي رواية أخرى: «وروحه تقلقل في صدره» ابن ماجه، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، رقم ١٥٧٧.

(٣) الشنة: القرية البالية، ومعناه لها صوت وحشرة كصوت الماء إذا ألقي في القرية البالية.

(٤) فاضت: أي سالت. والمعنى نزل الدمع عن عيني رسول الله ﷺ.

(٥) وفي رواية: «يا رسول الله أتبكي؟ أولم تنه عن البكاء؟» أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد، رقم ٢٠٧٨٠.

(٦) البخاري: كتاب الجنائز، رقم ١٢٠٤.

(٧) البخاري: كتاب الإيمان والنذور، باب قول الله تعالى: وأقسموا بالله جهد أيمانهم، رقم ٦١٦٣.

وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى « (١)

« وَأَصْلُ الصَّدَمِ: ضَرْبُ الشَّيْءِ الصُّلْبِ بِمَثَلِهِ، فَاسْتَعِيرَ لِلْمُصِيبَةِ الْوَارِدَةِ عَلَى الْقَلْبِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمَعْنَى أَنَّ الصَّبْرَ الَّذِي يُحَمَّدُ عَلَيْهِ صَاحِبَهُ مَا كَانَ عِنْدَ مُفَاجَأَةِ الْمُصِيبَةِ، بِخِلَافِ مَا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ عَلَى الْأَيَّامِ يَسْلُو. وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ عَنْ غَيْرِهِ: أَنَّ الْمَرْءَ لَا يُؤَجَّرُ عَلَى الْمُصِيبَةِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ صُنْعِهِ، وَإِنَّمَا يُؤَجَّرُ عَلَى حُسْنِ تَثَبُّتِهِ وَجَمِيلِ صَبْرِهِ « (٢)

الصَّبْرُ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ تَعْلُو بِصَاحِبِهَا، وَبِهِ - وَبِالصَّلَاةِ - يَسْتَعِينُ الْإِنْسَانُ عَلَى تَحْقِيقِ مَا أُمِرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نُهِيَ عَنْهُ.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٣)

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤)

إِنَّ مَا أُمِرْنَا بِهِ أَوْ نُهِينَا عَنْهُ، يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٍ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ أَجْرَ الصَّابِرِينَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُؤَيَّ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٥)

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم ١٢٠٣.

(٢) فتح الباري: ١٥٠/٣.

(٣) البقرة: ٤٥.

(٤) البقرة: ١٥٣.

(٥) الزمر: ١٠.

أخي المسلم: الصبر هو الإجابة الظاهرة الفائزة عن ضراء الحياة، والشكر هو الإجابة الظاهرة الراشدة عن سراء الحياة. والأعراض - من سراء وضرأ - تذهب، ويبقى الصبر حياءً، ويبقى الشكر رزقاً ممتداً لمن شكر.

روى مسلم، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١)

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ بُشِّرَى لأصحاب هذه الصفة من الرجال والنساء.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢)

في الصفات التي يفوز صاحبها بالجنة، لا في الزينة الداهية والمتاع الزائل.

في الحديث المتفق عليه عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْحَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتَ صَبِرْتَ وَلَكَ الْحَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ. فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا» (٣)

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٣١٨.

(٢) المطففين: من الآية ٢٦.

(٣) البخاري: كتاب المرضى، باب فضل من يُصرع من الريح، رقم ٥٢٢٠.



أخي المسلم:

الخشوعُ صفةٌ يُوصَفُ بها الرجلُ، كما توصَفُ بها المرأةُ، وقد جاء في الآية الجامعةِ لصفاتِ الخيرين من الرجال والنساء ﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ﴾ وفي الخشوع سُكُونٌ وطُمَأْنِينَةٌ، وفيه تواضعٌ، وفيه ضَرَاةٌ، وإذا ضَرَعَ القلبُ خَشِيعَتِ الجوارحُ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ﴿٢﴾﴾^(١)

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٣﴾﴾^(٢)

قال سفيان الثوري: سألتُ الأعمشَ عن الخشوعِ، فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع ؟! سألتُ إبراهيم النخعي عن الخشوعِ، فقال: «أعيمش، تُريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوعُ بأكل الخشن، وليس الخشن، وتطأطؤ الرأس، لكنَّ الخشوعَ أن ترى الشريفَ والديء في الحقِّ سواء، وتخشع في كُلِّ فرضٍ افترضَ عليك».

ونظر عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى شابٍ قد نكسَ رأسه، فقال: «يا هذا، ارفعْ رأسك! لا تُمِتْ علينا ديننا، إنَّ الخشوعَ في القلوب، ليس الخشوعُ في الرقاب» وروى الحسنُ أن رجلاً تنفَسَ عند عمر الخطاب كأنه يتَحَازَنُ، فلكرهه عمرُ -

(١) المؤمنون: ٢،١.

(٢) البقرة: ٤٥.

أو قال: لَكُمْهُ. وكان عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسكُ حقاً.

فَمَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ خَشَوْعاً فَوْقَ مَا قَلْبُهُ، فَإِنَّمَا أَظْهَرَ نِفَاقاً عَلَى نِفَاقٍ.

وقد يُقَابِلُ خَشَوْعُ الْقَلْبِ بِقَسْوَتِهِ، فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ لَيِّنٌ رَقِيقٌ، وَقَلْبُ الْجَاهِدِ قَاسٍ غَلِيظٌ. وَالْقَلْبُ إِذَا قَسَا كَانَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ، وَالنَّفْسُ إِذَا بَعُدَتْ عَنْ هِدَايَةِ اللَّهِ، وَطَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ، قَسَتْ، فَلَا تَقْبَلُ مَوْعِظَةً، وَلَا تَلِينُ بِوَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١)

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢)

وَالنَّفْسُ لَا تَحْيَا وَلَا تَلِينُ إِلَّا بِوَحْيِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، كَالْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ لَا تَحْيَا إِلَّا بِمَا يَأْتِيهَا مِنْ غَيْثٍ، وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْهَا مِنْ مَاءٍ.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣)

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) الحديد: ١٧.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (١٦) ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿ (١٩)﴾ (١)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٠)﴾ (٢)

والقلوب التي لا تخشع لذكر الله وما نزل من الحق، قد أصيبت، أو أغلقت، أو أغلقت؛ بسبب الكفر أو الذنوب والآثام.

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢١)﴾ (٣)

﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٢٢)﴾ (٤)

وأمرضُ القلوب متنوعة، منها: ما هو بالشبهات، ومنها ما هو بالشهوات. وكلاهما يورثُ القسوة، ويُبْعِدُ الخشية.

فليحذر المسلم من قسوة القلب بعد ليله؛ فإن القلبَ سريعُ التقلب، فإذا طال عليه الأمدُ - بلا تذكيرٍ أو تذكُرٍ - أظلمَ وأعتَمَ، وقَسَى وتبلَدَ.

(١) الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩.

(٢) الحشر: ٢١.

(٣) الأنفال: من الآية ٢٤.

(٤) الكهف: من الآية ٢٨.

ولا بُدُّ من إيقاظ القلب بالمداومة على ذكر الله، والقيام بما أوجبه؛ حتى يخشع ويضرع.

والقرآن هو خير ما يُخاطَبُ به القلب، فليقبل عليه، وليتدبره؛ لتحيا به النفوس وتستجيب لأمر ربها.

والقلب إذا خشع لكلام ربّه، خشعت الجوارح، وتأدبت بأدب الله. وكم حوّل القرآن - بفضل الله - نفوساً من حالٍ إلى حال، وكم فاضت أعين من الدَّمْع عند سماعه، ووَجِلَتْ قلوبٌ.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١)

والرسول ﷺ يسمع القرآن - وهو من أنزل عليه - فلا يملك دمعاً.

في الحديث المتفق عليه، عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: اقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ١٩! قَالَ: فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي. فَتَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجَعْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٢) قَالَ: أُمْسِكْ. فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ» (٣)

أخي المسلم: الخشوع صفة يُوصَفُ بها الرجل، كما تُوصَفُ بها المرأة

(١) المائدة: ٨٣.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، رقم ٤٢١٦.

﴿ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَتِ ﴾ وكم من نسوة سَبَقْنَ الرجال في مضمار الفضائل، ومنهنَّ مَنْ ضَرَبَهُ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا؛ لَخُضُوعِهَا لِرَبِّهَا، وإِقْبَالِهَا عَلَى طَاعَتِهِ.

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَخِنًى مِّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَخِنًى مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

في الفضائل والأخلاق فليتنافس المتنافسون؛ فإن التنافسَ عليها يُحَقِّقُ البرَّ بين الناس، ويصونُ المجتمعَ من الدمار والهلاك. أمَّا التشبُّه، تشبُّه الرجال بالنساء، أو تشبُّه النساء بالرجال - فيما خُصَّ به أو خُصَّتْ به - فهو جناية على الفطرة، وتدمير للرجل والمرأة، والأسرة والمجتمع.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: « لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجَّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ » (٢)

اللهم إِنَّا نُحِبُّ رِضَاكَ، فَأَعِنَّا عَلَى مَا يُرْضِيكَ عَنَّا.

(١) التحريم: ١١.

(٢) البخاري: كتاب اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، رقم ٥٤٣٦.



أخي المسلم:

إن من أعظم نِعَمِ الله تلك التي تلازم الإنسان في جميع مراحل سيره، وهي نعمة (الإسلام) إنها نعمة مُمتدَّة، لا يصلح بها أمرُ الدنيا فحسب، بل يصلح بها أمرُ الدنيا وتُنال الآخرة.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (١)

بمذه النعمة تُعصم الأمة من الفرقة والموان، وتُنقذ من العذاب.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢)

بمذه النعمة كُرِّم الرجل، وكُرِّمَت المرأة، وتبوأت المكانة التي خلقت لها.

نعمة من الله، لا مِنَّة من الخلق، وتكرِّم من الخالق، لا هبة من المخلوق.

ومن يزعم من البشر - في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ - أنه حريصٌ على المرأة، وفي حقِّها، بعيداً عن شرع الله، فقد ادَّعى لنفسه ما لم يستطع، وقد ضلَّ وهو يظنُّ أنه يُحسنُ صنْعاً.

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

هذا مع حُسْنِ النِّيَّةِ والقصد.

إن الرجل والمرأة يُحدَّد حُقوقُهُما مَن خَلَقَ، وهو يعلم مَن خَلَقَ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بِدَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ ﴾ (١)

وأما البشرُ فَلَعَجَزَهُم قد يقصد أحدهم الإحسان إليك، فلا يُحقِّقه، وقد يجهل

ما يصلح لك، فيُسيء، وقد يكون صاحب غرض فيُبيد المعروف وهو يُضمر المنكر.

وفي المخلوقات قد ترى (الدَّيَّة) وهي تُبعد الذبابة عن وليدها فتقتله !

كم، وكم في مخلوقات الله من نقص في الإحاطة وسوء التقدير، وتُبعد عن الجادة

وعن سواء السبيل. فمن يزعم أنه يستطيع - بفكره - أن يُحدِّد الحقوق، ويبيِّن

الواجبات، وفي بتكريم الإنسان، فقد ادَّعى ما ليس له، ونسي جهله وعجزه وضعفه

وموته. والجنُّ والإنسُ يموتون، والله حيٌّ لا يموت، والجنُّ والإنسُ يجهلون، والله قد

أحاط بكل شيء علماً، والجنُّ والإنسُ يعجزون ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ

فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝ ﴾ (٢)

والجنُّ والإنسُ يُطعمون، والله يُطعم ولا يُطعم.

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا

فِي غُرُورٍ ۝ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ

(١) الملك: ١٣، ١٤.

(٢) فاطر: من الآية ٤٤.

﴿ ١١ ﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿ ١٢ ﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
﴿ ١٣ ﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿ ١٤ ﴾ (١)

فعلى المراة أن تنعمَ بعباء الخالق، وأن تحذرَ من عبث المخلوق وادّعائه؛ فإن كُلَّ ما يُقالُ عن حقوق المراة - بعيداً عن الإسلام - ادّعاءٌ إن سَلِمَ من سوء النية والقصد، فلن يَسَلَمَ من العجز والجهل والقصور.

ولن تُصانَ المراة في كرامتها، وفي أمومتها، وفي عاقبتها إلا بتنفيذِ شرع الله واتباع أمره.

ومع الآية الجامعة لصفات الخيرين من الرجال والنساء؛ لنقفَ عند صفة من الصفات، وهي صفة (التصدق) التي يُوصَفُ بها الرجل، كما تُوصَفُ بها المراة ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ وتؤجرُ كما يؤجرُ، والله يضاعف لمن يشاء.

﴿ إِنَّ الْمُسْدِقِينَ وَالْمُسْدِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢)

وهل يتصدق إلا من له أهلية التملك، وحرية التصرف ؟

إن المراة - في الإسلام - تملك أصناف المال بكافة أسباب التملك المشروعة، ولها الحق في أن تمارس التجارة وجميع وسائل الكسب المباح، فهي تملك، وتُربح،

(١) الملك: ٢٠ - ٢٤.

(٢) الحديد: ١٨.

وَنَهَبَ، وَتُوصِي، وَتَصَدَّقُ، وَتَصَرَّفُ فِي مَالِهَا بِالطَّرْقِ الْمَشْرُوعَةِ، دُونَ سُلْطَانٍ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا، مَا دَامَتْ بِالْعَةِ رَشِيدَةً.

وَالزَّوْجُ مُلْزَمٌ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا مَهْمَا كَانَتْ دَرَجَةُ ثَرَاثِهَا وَغِنَاهَا.

وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا مَا تَقَدَّمَهُ بَطِيبُ نَفْسٍ مِنْهَا.

وهذا القَدْرُ من الحقوق - في الجانب المالي - لم تحصل عليه المرأة بعيداً عن الإسلام، وَلَكِنَّا فِي حَاجَةٍ لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَمَا يَكُونُ بَعِيداً عَنِ الْإِسْلَامِ، وَمَا صَارَتْ عَلَيْهِ مَعَ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ لَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ عَطَاءِ الْخَالِقِ وَرَحْمَتِهِ، وَبَيْنَ إِمْسَاكِ الْإِنْسَانِ وَضَيْقِهِ وَأَثَرِهِ.

وَكُلُّ ادِّعَاءٍ - فِي أَيِّ مَجَالٍ - عَنْ تَكْرِيمِ الْمَرْأَةِ وَحَقَّقِهَا "مِنْ أَصْحَابِ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ" قَاصِرٌ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ، مِمَّا يَنْتَهُ الشَّرْعُ وَأَمَرَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ.

وَالْحَدِيثُ عَنْ قَضَايَا الْمَرْأَةِ - بَيْنَ فِتْرَةٍ وَأُخْرَى - يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ فِيهِ تَبَعاً لِلْاِخْتِلَافِ فِي مَفْهُومِ التَّكْرِيمِ، وَمَعْنَى الْحَقُوقِ.

فَالَّذِينَ يَرِيدُونَ الْمَرْأَةَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ لِنِزَوَاتِهِمْ وَشَهْوَاتِهِمْ فِي كُلِّ عَمَلٍ وَكُلِّ مَجَالٍ، غَيْرَ الَّذِينَ يَرِيدُونَهَا أُمًّا فَاضِلَةً لِمُجْتَمَعٍ كَرِيمٍ.

هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ التَّكْرِيمَ لَهَا فِي صَيَانَتِهَا، وَرِعَايَةِ فُضَائِلِهَا، وَحِمَايَتِهَا مِنْ عَثِّ الْعَابِثِينَ، وَإِفْسَادِ الْمَفْسُودِينَ.

وَأُولَئِكَ يَرَوْنَهَا مَسَلَّةً وَمَلْهَأَةً لِمُحَالْسِهِمْ وَشَهْوَاتِهِمْ.

والمرأة أهل لكل تكريم. والوصية بما مقدمة على الوصية بالرجل، فليس لأحد أن يعتدي عليها بنظرة فاجرة، وليس من حقها أن تعتدي على عفة الشباب بما ترتديه من مفاتيح الزينة، وما تظهره من دواعي الفتنة.

على أن هذا الجانب قد أعطي حقه بضوابط الزواج المشروع، التي تُبنى به الأسر، وتنشأ الأجيال.

وما يقع من اضطراب مصدره تعسير الزواج بوسائل مُفتعلة، مع أن الشرع قد يسره، ولم يجعل فيه حرجاً. ومن واجب المجتمع المسلم أن يُيسر أسباب الحلال؛ فإن التعسير مدعاة إلى الوقوع في الحرام.

ومع تحديد مفهوم التكريم ومعنى الحقوق، يجد الناس أنفسهم - عند الإنصاف - أمام شرع الله، يشكرون نعمة الله ولا يحقدون، ويجدون وفاء الحقوق والواجبات للرجال والنساء جميعاً يرون مجتمعاً فاضلاً تؤدي فيه المرأة دورها، عاملة راشدة، بارّة متصدقة.

وميدان الفضائل مفتوح للجميع، تملو فيه المرأة بعلمها وفضائلها وأخلاقها، وتسمو بأعمالها.

ولم أرَ صفة من صفات الخير دُعي إليها الرجل ولم تدع إليها المرأة، ولم أرَ صفة من صفات الشر نُهي عنها المرأة ولم يُنه عنها الرجل؛ فهما متعاونان على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.



أخي المسلم:

في حديث سابقٍ قلتُ: إِنَّ الحديثَ عن قضايا المرأة - بين فترةٍ وأخرى - يقعُ الاختلاف فيه تبعاً للاختلاف في مفهوم التكرم، ومعنى الحقوق. فالذين يريدون المرأة لنزواتهم وشهواتهم، غير الذين يرونها أمّاً فاضلةً لمجتمعٍ كريم.

والله - جلّ وعلاً - يُكْرِمُها في كتابه، ويضربها مثلاً للذين آمنوا، بفضلها، وعملها، وسُمُوها، وصبرها، وهي تؤمنُ بوعدِ ربّها، ولا تُستَحَفُّ من الذين لا يوقنون.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

وميدانُ الفضائل ميسورٌ للجميع، ومعالي الأمور يقصدها أصحابُ العزيمة الراشدة من الرجال والنساء « والله يحبُّ معالي الأمور، ويُغضُّ سفاسفها (٢) » (٣)

والله - جلّ وعلاً - قد رَضِيَ لنا مكارمَ الأخلاق، وكَرِهَ سفاسفها. فلنتعاون جميعاً على السمو والصعود، لا على السقوط والهبوط، ولنتنافس على مكارم الأخلاق؛ فإن التنافسَ عليها يزيدُها ولا يُنقصُها، وبما نتعارف ولا نتناكر، ونتراحم ولا نتدابر، والتنافسُ على غيرها قد يُفسدُ الروابط، ويقطعُ ما أمر الله به أن يوصل.

(١) التحريم: ١١.

(٢) السفاف: الردى من كل شيء. وسفاسف الأخلاق: رديتها.

(٣) المعجم الكبير للطبراني: ١٣١/٣، رقم ٢٨٩٤.

فلتتنافس على الفضائل، ولتُربَّ النشءَ عليها؛ لنضمنَ لأمتنا وجودَها وحياتها وامتدادها؛ فإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت، فإن هُم ذهبَ أخلاقُهم ذهبوا.

ومع الآية الجامعة لصفاتِ الخيرين من الرجال والنساء؛ لنقفَ على صفةٍ من الصفاتِ العاليةِ الرفيعة، التي يتجرّدُ فيها المجتمعُ لعبادةِ ربِّه، ويسمو بعزيمته وصبره.

صفةٌ وُصِفَ بها الرجلُ، كما وُصِفَتَ بها المرأةُ ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ (١)
وليس في الصومِ رياءٌ، ولذا جاء في الحديث: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» (٢)

والصومُ إمساكٌ. وفي الإمساكِ تربيةٌ، وضبطٌ للنفسِ أن تضيَّ وراءَ كُلِّ ما تشتهي وترغب. إمساكٌ عن شهوات: الطعام، والشراب، والنكاح، والكلام.
وَكَمْ أَسْرَتِ الشَّهَوَاتُ نَفُوسًا، وَنَكَّسَتْ رُؤُوسًا، وَكَمْ أَوْدَى اللِّسَانُ بِصَاحِبِهِ، وَأَلْقَتْ بِهِ فِي النَّارِ حَصَائِدُهُ.

فليُمسكِ المسلمُ فرضاً في رمضان مع جميع إخوانه؛ لينصهرَ الكلُّ في بَوْتَقَةِ الإخلاص والطُّهر، وليُمسك - ما استطاع - في غيره بضوابط الاتِّباع؛ لتصفو النفسُ لرسالتها، وتحيا لغايتها، ولا تُؤسَّرُ بشهوةٍ، أو تُحكَمَ بنزوةٍ.

والميدانُ مُيسَّرٌ للرجل والمرأة ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾
والصوم صَبْرٌ. ومع الصبرِ أجرٌ، أيُّ أجرٍ.

(١) الأحزاب: من الآية ٣٥.

(٢) البخاري: كتاب اللباس، باب ما يُذكر في المسك، رقم ٥٤٧٢.

﴿ إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١)

إن في الجنة باباً يدخل منه الصائمون، ولا يدخل منه أحدٌ غيرهم، سُمِّيَ باسم له دلالة في الجزاء والعطاء لمن ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل ربه.

في الحديث المُتَّفَق عليه، عَنْ سَهْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرِّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ. يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ» (٢)

وروى مسلم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» (٣)

أبوابٌ من الخير مُفْتَحَةٌ للناسِ جميعاً، فليستبقوا الخيرات، وليتنافسوا عليها؛ فإنَّ فيها سَعَةً وفيها رحمة.

والمرأة والرجل كلاهما مأمورٌ بالخير، مَنهِيٌّ عن الشرِّ، فَبَابُ الْمَسَاوَاةِ وَالتَّنَافُسِ رَحْبٌ فَسِيحٌ، يَسْتَوِي الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فِي الْمَعْرُوفِ، وَفِي الدَّعْوَةِ إِلَى جَمِيعِ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، وَمَا يُوْدِي إِلَيْهِ، وَيَسْتَوِيَانِ فِي الْكَفِّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاجْتِنَابِ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ، وَمَا يُوْدِي إِلَيْهِمَا.

وطلبُ المساواة في غير مساواةٍ - فيما خُلِقَ له، أو خُلِقَتْ له - دمارٌ وانتكاسٌ،

(١) الزمر: من الآية ١٠.

(٢) البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم ١٧٦٣.

(٣) مسلم: كتاب الصيام، فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم ١٩٤٨.

وليس من مصلحة الرجل، ولا من مصلحة المرأة أن تُدمر أسوار العفة، وأن تترحل المرأة، أو يُخسَّ الرجل، في ظل شعارات بلهائٍ تطلب المساواة في غير مساواة.

للمرأة حقها وواجبها، وللرجل حقه وواجبه. ولا تصادم في الحقوق، ولا منافاة بين الواجبات إن نحن التزمنا شرع الله، ورضينا بحكمه.

وكل نزاع أو ضلال يأتي من دوافع الهوى، ومجاوزة الحدود.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (١)

عشر صفات في آية واحدة، للرجل والمرأة ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ
وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢)

فكم حققنا منها في مجال المساواة والتنافس؟

كم حققنا من هذه الصفات، وما تتطلبه من تربية وإعداد، في أدب وصمت، وحكمة ورشد؟

نريد أن نأخذ أنفسنا بالإيجابيات، وألا نُقلد غيرنا في السلبات.

(١) الطلاق: من الآية ١.

(٢) الأحزاب: ٣٥.



أخي المسلم:

مع الآية الجامعة لصفات الخَيْرِينَ من الرجال والنساء، وهي الآية الخامسة والثلاثون من سورة "الأحزاب"، ومع الصِّفَةِ التاسعة منها، وهي ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾

إنها صفة من صفات المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ (١)

نعمت الصفات صفات تُورثُ صاحبها (الجنة) برحمة من الله وفضلٍ ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ» (٢)

(١) المؤمنون: ١ - ١١.

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٥٩٩٣.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَقَّاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» (١)

ولكي يحفظ الإنسان نفسه من الوقوع فيما حرم الله، عليه أن يجتنب المقدمات التي تؤدي إلى الوقوع في الحرام ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ خُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِينَ غَيْرُ أُولَىٰ إِلَٰزِمَةٍ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الَطِّفْلِ الذَّيِّ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

مقدمات تؤدي إلى الفتنة، وتغري بالفساد، وتطمع أصحاب القلوب المريضة. ينهى الله عنها، ويأمر بضدّها. ويأجر على كلّ شيء من كفٍّ أو فعلٍ؛ رحمة منه وفضلاً، ويضاعف الأجر لمن ذكر ربّه فعفّ، وتذكّر حسابه، فصان نفسه وكفّها عن المعصية؛ طمعا في ثواب الله؛ وخشية من عذابه.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم ٢٣٣٣، وقال: هذا حديث حسن غريب

(٢) النور: ٣٠، ٣١.

بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ زُؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١﴾

ولكي تحفظ المرأة ويعفظ الرجل ما أمر الله به أن يحفظ، لا بُدَّ من اجتناب الدواعي والأسباب، وحفظ الجوارح والحواس من التطلع أو الاستجابة إلى ما لا ينبغي. فعَضُّ البصر، وصيانة السمع، وحفظ اللسان، يُعين المرء على حفظ ما بين رجله. فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرَجُ أو يكذبه.

روى الإمام أحمد في مسنده، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزَّنا. فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزَنَاهُمَا النَّظَرُ. وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزَنَاهُمَا الْبَطْشُ. وَالرَّجْلَانِ يَزْنِيَانِ وَزَنَاهُمَا الْمَشْيُ. وَالْفَمُ يَزْنِي وَزَنَاهُ الْقَبْلُ. وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى. وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » (٢)

وما من شيء يُحقق العِفَّةَ، ويصون الحُرُماتِ إلَّا دعى الإسلامُ إليه ورغب فيه، وما من شيء ينال من عِفَّةِ الرجال أو النساء، أو يُوقِعُ الفسادَ إلَّا هوى عنه، وحذر منه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا تَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ. قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » (٣)

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) أحمد: باقي مسند المكثرين، رقم ٨١٧٠.

(٣) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات، وإعطاء الطريق حقه، رقم ٣٩٦٠.

وروى أبو داود، عَنْ حَرِيرٍ قَالَ: « سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرَةِ النِّجَاجَةِ. فَقَالَ: اصْرِفْ بَصْرَكَ » (١)

وروى أبو داود والترمذي، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: « كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ وَمِمْوْنَةُ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أَمَرْنَا بِالْحِجَابِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: احْتَجَبَا مِنْهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَعَمِيَا وَإِنْ أَتَيْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟ » (٢)

أخي المسلم: أمورٌ وأمورٌ دَعَا الإسلامُ إليها، أو حَذَرٌ منها، تُعِينُكَ عَلَى إِحْرَازِ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، الَّذِينَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفِظِينَ﴾ فَصُنْ نَفْسَكَ، وَصُنْ أَهْلَكَ عَنْ كُلِّ مَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الصِّفَةِ؛ فَإِنَّ التَّفْرِيطَ مِنْ جَانِبِكَ يُسِيءُ إِلَيْكَ وَإِلَى غَيْرِكَ.

والمجتمع الفاضل يتساندُ أفراده في تحقيق الفضائل وصيانة الحُرُمَاتِ، وَلَا شَيْءَ يَدْمُرُ كَيَانَ الْأُمَّةِ كِإِشَاعَةِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. وَمَنْ يُحِبُّ ذَلِكَ أَوْ يَرْضَاهُ تَعَرَّضَ لْغَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِفَعْلِ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ، وَمَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ.

فعلى المرأة أن تحذرَ من كلماتِ السُّوءِ، وجُلُوسِ السُّوءِ، وشَبِّهِ السُّوءِ، وأن تصونَ نَفْسَهَا مِنَ الْفِتْنَةِ وَالتَّقْلِيدِ لِمَنْ يَرْضَى لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُنَّ وَقُودًا لِنَارِ جَهَنَّمَ؛ فَإِكُنْ

(١) أبو داود: كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، رقم ١٨٣٦.

(٢) الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، رقم ٢٧٠٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قد كُثِرَ في زماننا هذا، وأُتِ وسائلُ العصر إلا أن تُطْلَقَ عليهنَّ ألقاباً تُغري بها كُلُّ محتشمةٍ عفيفةٍ !

وجعلت منهن نمودج حضارةٍ وتقدم. وهنَّ اللاتي أخبرَ الرسول ﷺ عنهن في الحديث الصحيح الذي رواه مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَّاتٌ ^(١) مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ ^(٢)، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ ^(٣) الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » ^(٤)

فعلى المسلمة - وهى تنتسبُ إلى أكرم الآباء، وأشرف الأمهات - ألا تؤخذ بالربغات، وتنسى العواقب، وألا تُخدعَ بالزينة الزائلة عن القيمة الباقية. وعليها أن تتدبرَ واقع الأمة الإسلامية التي تنتسبُ إليها.

إن أُمَّتَنَا تحتاج إلى الفرد الصحيح، رجلاً كان أو امرأة، وبالإيمان والاستقامة تصحُّ النفوسُ، وتسلمُ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

(١) ثيابهن شفافة تصف، أو محسورة لا تستر.

(٢) مائلات عن الحق، أو مائلات يمشين بتبخر وميوعة.

(٣) البُخت: جمال طويلة الأعناق.

(٤) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، رقم ٣٩٧١.



أخي المسلم:

في ختام صفات الحَيِّين من الرجال والنساء، في الآية الكريمة من سورة الأحزاب، جاءت هذه الصفة ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وجاء بعدها بيان ما أعدَّ الله لهؤلاء من مغفرةٍ وأجرٍ عظيم ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وذكرُ الله طمأنينةٌ للقلب. وهو يُعَلِّي قَدْرَ صاحبه، ويُحَقِّقُ له الحياة، حياةَ المستغفرين بُنُورِ الله، المُدْرِكِينَ لَعَايَةِ وجودهم.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً» (١)

فأيُّ شَرَفٍ أعظمُ من هذا الشَّرَفِ؟ وأيُّ جزاءٍ أكرمُ من هذا الجزاء؟

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (٢)

روى البخاريُّ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» (٣)

(١) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه، رقم ٦٨٥٦.

(٢) البقرة: ١٥٢.

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى، رقم ٥٩٢٨.

وفي رواية لمسلم، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » (١)
إن أصحاب هذه الصفة في رفعة وحياة وسبق.

روى مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ "جُمْدَان"، فَقَالَ: سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ. سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ. قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ » (٢)
إنَّ لِذِكْرِ اللَّهِ تأثير في حياة الناس، في عاجلٍ أمرهم وآجله.

ومن السبعة الذين يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلٌّ إِلَّا ظِلُّهُ: « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » (٣)

وإذا ذَكَرَ الرجلُ فمن باب "التغليب"، لا من باب "الاختصاص"؛ فإنَّ للمرأة أجرها وثوابها إذا كانت على هذه الصفة.

ومما يُذَكَّرُ في سبب نزول الآية التي معنا ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ﴾ ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُبَيْةٍ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: « قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لَا نُذَكَّرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذَكَّرُ الرَّجَالُ ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ يَوْمٌ إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمَنْبَرِ. قَالَتْ: وَأَنَا أُسْرَحُ شَعْرِي، فَلَفَفْتُ شَعْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ، فَإِذَا هُوَ

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ١٢٩٩.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم ٤٨٣٤.

(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٢٠.

يَقُولُ عِنْدَ الْمُنِيرِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١)

ولقد رأينا أمهات المؤمنين - وقد عُرِضَ فَضْلُ الذِّكْرِ - يحرصن عليه، ويقندين برسول الله ﷺ في قوله وعمله، ويقمن بما أوجب الله عليهن، ويكثرن من ذكر الله كما أمر الله.

روى مسلم عن أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً - حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ - وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّذِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتُ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتُهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ» (٢)

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ صفة من أكرم الصفات وأبرها.

صفة تحقق الفلاح بفضل الله ورحمته ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣)

وذكر الله يكون بالألفاظ التي ورد الترغيب فيها وأوصت السنة من الإكثار منها.

(١) أحمد: باقي مسند الأنصار، حديث أم سلمة رضي الله عنها، رقم ٢٥٣٨٩.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم ٤٩٠٥.

(٣) الجمعة: من الآية ١٠.

ويكون بالمواظبة على العمل بما أوجهه الله أو ندب إليه.

ويكون بالقلب واللسان والجوارح.

فذكرُ اللسان يكون بالتسبيح، والتحميد، والتمجيد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » (١)
وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » (٢)

ولذا كان تنافسُ صحابةِ رسول الله ﷺ لا على زينة الحياة وزهرتها، بل على الباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنْ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرجاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ: وَمَا ذَلِكَ؟ قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَصَدَّقُونَ وَلَا تَنَصَّدُقُ، وَيُعْتَقُونَ وَلَا نُعْتَقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا تَذَرُكُمْ بِهِ مِنْ سَبَقِكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مِنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » (٣)

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم ٥٩٢٧.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٤٨٦١.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم ٩٣٦.

هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ يتنافسون على الباقيات الصالحات، ولا يشكر فقيرهم غنيهم من تقصير في حق، بل يغبطونهم على أداء الحق، ولا يقنع الأغنياء من فعل الخير كما سمعنا، بل تراهم - وقد سمعوا بما فعله إخوانهم الفقراء - يفعلون مثل ما فعلوا.

تنافس على الخير، وإيثار للباقيات الصالحات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أخي المسلم: ذكر باللسان، وقد سمعنا أمره. وذكر بالقلب بالتفكير والتدبر. وبالإخلاص والصدق. وذكر بالجوارح بالتزام الطاعات، والسعي إليها، وإحضارها لما يحب الله ويرضى.

وعليك في جميع أمرك أن تتبع ولا تتبدع، وأن تدعو الله دعاء الموقنين الواثق، الذي يتقرب إليه بالطاعات، ويخترس من المحرمات، في مأكله ومشربه وجميع أمره. وأفضل الذكر القيام بما فرضه الله وأوجبه، وإخلاص القصد له قولاً وعملاً، واتباع ما جاء به نبيه ﷺ، وتحري المأثور عنه في الدعاء؛ فقد ورد عنه في الأحاديث الصحيحة ما يعني ويرشد، ويعلم ويصبر.

روى مسلم عن مضعب بن سعد عن أبيه قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: علمني كلاماً أقوله. قال: قل: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزير الحكيم. قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال: قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، وأهديني، وارزقني» (١)

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٤٨٦٢.



أخي المسلم:

إن للمرأة مكانتها، ولها حقوقها، وعليها واجبات. والقرآن الكريم يذكر المرأة في مواطن كثيرة تُعرف فيها الحقوق، وتُذكر الواجبات. ويضربها مثلاً للذين آمنوا، ومثلاً للذين كفروا.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (١)

امرأتان كافرتان في بيوت أنبياء، وامرأة مؤمنة - وهي امرأة فرعون - في بيت كافر، ظالم، جحود، لا يستحي أن يقول للناس: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٢)، ولا يتورع أن يقول للملأ: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٣)

في هذا الجو الخائق المظلم تمتد المرأة بشخصيتها فتتبرع بموقفها ظلام الحياة من حولها، وتعلو بفضائلها حتى يصبح أمرها مثلاً للمؤمنين في كل زمان ومكان، وآية تُتلى في كتاب الله عز وجل.

امرأتان تُضربان مثلاً للذين كفروا، وامرأتان تُضربان مثلاً للذين آمنوا، في آيات

(١) التحريم: ١٠.

(٢) النازعات: من الآية ٢٤.

(٣) القصص: ٣٨.

متناليات ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْعًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا فَتْحٌ مِّنَ الْقَبْرِ ﴿١٢﴾ ۚ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿١٣﴾ ۝ (١)

ما دلالة ذكر المثليين في القرآن الكريم ؟

نساء كافرات في بيوت أنبياء، لم يستفدن بما يُتلى في بيوتهنَّ.

ونساء مؤمنات لم يتأثرنَّ بما يُحيط بهنَّ من فسادٍ وإفسادٍ، وظلمٍ وطغيان.

آيات تُتلى في سورة (التحریم)؛ لتأخذ المرأة درسها البالغ من حياة النبي ﷺ وأزواجه، ومِمَّا ضربه الله مثلاً للذين كفروا وللذين آمنوا.

وأول ما يُطالعنا في هذا الدرس: استقلال المرأة بشخصيتها ثواباً وعقاباً، فإن كفرت وعصت فلن ينفعها رَحِمٌ أو قريبٌ، أو يغني عنها من الله شيئاً.

﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ۝

(١) التحريم: ١٠ - ١٢.

(٢) الممتحنة: ٣.

الرسول ﷺ يقول لأهله وقرابته: « اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا »، ويقول لابنته فاطمة: « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي؛ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » (١)

المرأة مسئولة عن عملها. وتلك أقصى درجات التكريم، أن تكون مسئولا عن عملك، لا كمأ مهملاً لا يؤبه به، ولا يُقام له وزن.

وكم عاشت المرأة - بعيداً عن شرع الله - كمأ مهملاً، نُورثُ كما يُورثُ المتاع ! ولكنها بالدين، وما فُرضَ من حقوق، وحُدِّدَ من واجبات، صارت ذات شأنٍ أي شأن.

هي (أم) وللام فضلٌ وحقٌّ. والبرُّ بها يُقدَّم على البرِّ بالأب ثلاث درجات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ » (٢)

وفي رواية: « مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصَّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » (٣)

حقوقٌ وواجباتٌ يُصانُ بها الرجلُ، كما تُصانُ بها المرأة. تنبئُ عن تقديرٍ لإنسانيتها، وأنها مسئولة، والمسئولُ مُكرَّمٌ بما كُلِّفَ.

(١) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٥٤٨.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٥١٤.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنها أحق به، رقم ٤٦٢٢.

وهي تسمو بتحقيق مسئوليتها حتى تُضْرَبَ مثلاً للمؤمنين من الرجال والنساء، وتحرف أو تضل، فتدخل النار مع الداخلين.

وهي إذا عزّت بدنيها علّت على البيئة الفاسدة، وكانت مؤثرة بفضائلها، غير متأثرة بالفساد ومن حولها، وكانت جديرة بأن تُضْرَبَ مثلاً.

والمرأة المسلمة - وهي تقرأ القرآن، وتنشأ على تلاوته وسماعه - جديرة أن تؤثر في المجتمعات من حولها، وأن تكون - حيث كانت - داعية لدينها بفضائلها وسمتها، وأخلاقها وعلمها.

وهي تقرأ القرآن وتعتصم به واجب عليها أن تكون في منعة من لوثة الطواغية والتقليد لما يتنافى مع دينها، ويخالف كتاب ربها.

إنها وهي تقرأ القرآن، وتعمل به، تنتسب إلى كل شريفة مؤمنة على مر التاريخ، وتبرأ من كل فاجرة فاسدة في أي زمان وفي أي مكان؛ لأن دينها يعلمها أنها (قيمة) وإن بدت مع حب الشهوات أنها (زينة)، فإن ما فيها من زينة يذهب، وما هي عليه من قيمة يبقى، فلا تُخذع بمن يُزين لها الخروج على الحقوق والواجبات، ويُقرب إليها الملذات، ويُغريها بالسبق على الرجال في الموائد والحفلات؛ فإن ذلك كله من حب الشهوات، وكل ذلك ذاهب، وتبقى الفضائل، وتبقى القيمة.

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِرِ ۝ ﴾ قُلْ أُوْتِفِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ

أَنْقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١﴾

أخي المسلم: أَعِنُ أَهْلَكَ عَلَى الْفَضَائِلِ بِمَا تُقَدِّمُهُ مِنْ تَذَكُّرٍ، وَمَا تَتْلُوهُ مِنْ
آيَاتٍ. وَلَا تَحْسَبَنَّ إِكْرَامَهُمْ فِي فَيْضٍ مِنَ الزَّيْنَةِ وَالْمَتَاعِ، وَإِنَّمَا الْإِكْرَامُ فِي أَنْ تَقِيَّ نَفْسَكَ
وَأَنْ تَقِيَّ أَهْلَكَ مِمَّا يُوَدِّي بِهِمْ إِلَى نَارٍ وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا
مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢)

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣)

اللهم إنا نسألك رِضَاكَ وَالْجَنَّةَ، وَنَعُودُ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ وَالنَّارِ.

(١) آل عمران: ١٥، ١٤.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) النور: من الآية ٣١.



أخي المسلم:

درس للرجال والنساء يُتْلَى من بيت الرسول ﷺ، تُتْلَى فيه آياتٌ يجدُ فيها الرجلُ عظمتَه وعِبرته، وتجدُ المرأةُ أُنوثَتَها وقُدُوتَها ممَّا يدورُ في بيوت الرسول ﷺ، وما يُتْلَى فيها من آيات الله والحكمة.

روى البخاريُّ أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: «لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَرْوَاجِهِ، بَدَأَ بِي، فَقَالَ: إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ. قَالَتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا بِأَمْرَانِي بِفِرَاقِهِ. قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - قَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَرْوِجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدِّدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أَمْتَعُكُنَّ وَأَسْرِحُكِ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (١) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدِّدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢) قَالَتْ: فَقُلْتُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ. قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَرْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ» (٣)

تخييرٌ واختيارٌ بين ما وصل إليه اليقينُ في هذه النفوس، وما كانت عليه من صدقٍ وحبٍّ لله ورسوله. والمرأة بطبيعتها تميلُ إلى الزينة والمتاع، وبيوتُ النبيِّ ﷺ خاليةٌ من كُلِّ ذلك، وما فيها إلا ما يسدُّ الحاجةَ في وقتها.

تقول عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لعروة ابن أخيها: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَيْلَالِ، ثُمَّ الْهَيْلَالِ،

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٢) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدِّدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ.

ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارًا. فَقُلْتُ: يَا نَحَالَ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَاحُ^(١) وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا^(٢)

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي سأل فيه عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ الآية في هذا الحديث يقول عمر - بعد أن أذن له الرسول ﷺ بالدخول: «فَرَفَعْتُ بَصْرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ، غَيْرَ أَهْبَةِ^(٣) ثَلَاثَةٍ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ. فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ مَتَكِّمًا، فَقَالَ: أَوْفِي شَكُّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنْ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٤)»

وفي هذا الحديث تأتي قضية التخيير، وفيه تقول عائشة رضي الله عنها: «لَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً أَعْدَهُنَّ، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: بَدَأَ بِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ أَقْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا، وَإِنَّكَ دَخَلْتَ مِنْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ أَعْدَهُنَّ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّهْرَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ^(٥)»

هذا بيت رسول الله ﷺ وما يدور فيه وما يتلى فيه من آيات الله والحكمة،

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، رقم ٥٩٧٨.

(٢) البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، رقم ٢٣٧٩.

(٣) جمع إهاب، وهو الجلد.

(٤) البخاري: كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، رقم ٤٧٩٢.

(٥) مسلم: كتاب الصيام، باب الشهر يكون تسعا وعشرين، رقم ١٨١٣.

يُخَيَّرُ نِسَاءَهُ ﴿٢٨﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٩﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾ (١)

خَيْرٌ فَاخْتَرْنَ، وَنِعَمَ مَا اخْتَرْنَ. اخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ، وَرَضِينَ عَيْشَةَ الْكَفَافِ.

وما أكثر ما كُنَّ يَجِدْنَ بما في أيديهنَّ، وَيُفَقِّنَ ما يُعْطَى لَهُنَّ في سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُؤَثِّرْنَ غَيْرَهُنَّ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ؛ رَغْبَةً خَالِصَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ.

وَلَيْسَ فِي الْآيَاتِ مَا يُحَرِّمُ عَلَى أُمَّتِهِ ﷺ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَإِنَّمَا فِيهَا تَوْطِيدُ النُّفُوسِ وَإِخْضَاعُهَا لِمَرْضَاتِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ لِتَكُونَ الْإِجَابَةُ مَعَ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، فَلَا الْيُسْرُ يَغَيِّرُ النُّفُوسَ، وَلَا الْعُسْرُ يَشْغَلُهَا بِالتَّطَلُّعِ، وَإِنَّمَا تُشْغَلُ النُّفُوسُ - دَائِمًا - بِمَرْضَاتِ اللَّهِ، وَتَحْيَا بِالِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِهِ.

وَنَحْنُ نَقْرَأُ عَنْ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَزْوَاجُهُ، وَمَا اخْتَرْنَ، نَعْرِفُ أَيْنَ تَكُونُ الرِّغْبَةُ، وَبِمَ تَتَعَلَّقُ النُّفُوسُ؛ لِتُؤَثِّرَ مَا هُوَ أَبْقَى، وَتُخَضِّعَ الْفَانِي لِلْبَاقِي، وَتُسَخَّرَ نِعَمَ اللَّهِ فِي مَرْضَاتِهِ.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٢) الأعراف: ٣٢.

وبهذا تعتدل النفس، وتُمنح الرضا في الأحوال كلها؛ لأن الإنسان أحرز طاعة الله ورسوله، وعمل على مرضاته.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (١)

فلتعي الأنث المسلمة ذلك؛ حتى لا تُفتن بزينة الحياة، أو تركز إليها وتنسى الغد وما به من حساب وجزاء، ولتنافس على ما يبقى؛ فإن التنافس على الباقيات الصالحات يُخضع متاع الحياة لمرضات الله، فتنعم النفس بفضائلها، وتبقى بأخلاقها، وترضى عن حياتها، ولا تحقر نعمة ربها، وتنظر - دائماً - إلى ما هو أعلى منها في دين وخلق، لا في زينة ومتاع. وفي حياة الرسول ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.



أخي المسلم:

إن التعاون بين الرجل والمرأة لا يقف عند شئون البيت، وتنظيم الحياة المعيشية فحسب، وإنما يمتد إلى ما فرض الله، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١)

هذا ما يقتضيه الإيمان وما يوحيه. وهذا حال المؤمنين والمؤمنات في تعاونهم وترابطهم وتكافلهم، تعاون لإعلاء كلمة الله وتحقيق ما أمر به.

أما شأن المنافقين والمنافقات فهم على النقيض من ذلك. لا يتعاونون فيما بينهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتآزرون على البذل والعطاء فيما أمر الله به ودعى إليه، ولا يذكرون الله تعالى، بل ينسونه.

فإن أمر المؤمنين والمؤمنات بالمعروف، أمر المنافقون والمنافقات بالمنكر.

وإذا جاء المؤمنون والمؤمنات بالعطاء، وطابت أنفسهم بالإتفاق في سبيل الله، قبض أهل النفاق أيديهم.

(١) التوبة: ٧١.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَافِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ (١)

إيمان الرجال والنساء يوجه إلى تحقيق الخير والتعاون على البر. ونفاق يكون في الرجال وفي النساء يقود أهله إلى المنكر وسوء العاقبة. ومع الإيمان يتم الترابط والتعاون، والتكافل في تحقيق الخير ودفع الشر ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويعاون بعضهم بعضاً.

وتلك فريضة يوصان بها المجتمع، وتُحفظ الأسرة من التفكك والضياع. والتفريط فيها يحقق الفرقة، ويورث اللعنة.

روى أبو داود عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ (٢) ثُمَّ قَالَ:

(١) التوبة: ٦٧، ٦٨.

(٢) يُقَالُ: ضَرَبَ اللَّيْنُ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ أَيِ خَلَطَهُ. ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ وَقَالَ ابْنُ الْمَلِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْبَاءُ لِلْسَّبِيْبَةِ، أَيِ: سَوَّدَ اللَّهُ قَلْبَ مَنْ لَمْ يَعْصِ بِشَيْءٍ مِنْ عَصِي، فَصَارَتْ قُلُوبُ جَمِيعِهِمْ قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ أَوْ الرَّحْمَةِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَمَخَالَطَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَمِ فَعْلُوهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَيْسٍ مَا قَدَمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ (١) ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ (٢) عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ (٣) عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا (٤)

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعاون فيها المؤمنون والمؤمنات، ويوالي بعضهم بعضاً على أدائها، كما يوالي بعضهم بعضاً على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله.

فللمرأة دورها في أداء هذا الواجب، في محيط من تعاشرهم أو تتصل بهم.

عليها أن تذكر بما يجب، وأن تدعو إلى ما يحب الله ورسوله ويرضى.

عليها أن تعاون زوجها في القيام بما أوجب الله، وأن تسدّد خطاه فيما يرضيه، وأن تطيعه في المعروف، وأن تردّه عن المنكر، وأن تذكره بالله، وتعينه على إحراز الباقيات الصالحات، من الإيمان والعمل الصالح.

(١) المائدة: ٧٨ - ٨١.

(٢) أي: لتردنّه على الحق، وأصل الأطر العطف والتثني.

(٣) أي: لتحبسنّه عليه وتلزمه إياه. وفي النهاية يقال قصرت نفسي على الشيء إذا حبسنته عليه وألزمته إياه.

(٤) أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٣٧٧٤.

وعليها - وهي تعرف من النساء مَنْ تعرف، وتُخالط مَنْ تخالط - أن تكون إيجابية في صلاتها، تُبَصِّرُ وتُذَكِّرُ، تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتُرغِّبُ في الخير، وتدعو إليه، وتُحذِّرُ من الشر، وتنهى عنه.

وتُصاحِبُ - من المؤمنات - مَنْ يُعينها على طاعة ربِّها، وتكون ناصحةً أُمينةً، لا تُشغَلُ بالمرغائب عن العواقب، ولا تُفْتَنَ بالزينة الفانية عن القيمة الباقية.

وعليها أن تأخذ - دائماً - بالأسباب التي تسمو بفضائلها وتصور أخلاقها؛ فإنها مخاطبةٌ بشرع الله، مأمورةٌ به، مجزيةٌ عليه. وهي راعيةٌ في بيت زوجها، ومسئولةٌ عن رعيتهما، وبين يديها رجالُ الغد ترعى نموَّهم، وتحرس نشأتهن، وترعاهن بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة، وتغرس فيهن الفضائل وأئبل الصفات.

بِحَالِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مَتَّسِعٌ ومتعددٌ، والقيامُ به وأداؤه كما ينبغي سبيلُ الخير والفلاح ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢)

فَلْيَعِ كُلُّ مَنَّا واجِبَهُ، وَلْيُؤَدِّهِ كما أمر الله؛ فالיוםَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣)

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) العنكبوت: ٦٩.



أخي المسلم:

يطيبُ لي - في حديثنا هذا عن المرأة في القرآن الكريم - أن ألتقيَ معك عند مطلع سورة "المجادلة"؛ لنعرف شأن المرأة التي يسمع الله قولها وهي تجادل رسول الله ﷺ في زوجها، وتشتكي إلى الله؛ فإن فيها دروساً وعظات.

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١)

روى الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام، عن خولة بنت ثعلبة، قالت: « وَاللَّهِ فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ. قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ، وَضَجَرَ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاَجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَعُضِبَ، فَقَالَ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ، فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي. قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ. قَالَتْ: فَوَاتَيْنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَعَلَبْتُهُ بِمَا تَعَلَّبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْفَيْتُهُ عَنِّي. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي، فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ. قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَأَتَقِيَ اللَّهَ فِيهِ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا بَرَحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ،

(١) المجادلة: ١.

فَتَعَشَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَعَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ لِي: يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أُنْزِلَ
 اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبِكَ، ثُمَّ قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا
 وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ مِنْكُمْ
 نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ
 الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يُظْهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا
 فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ فَمَنْ
 لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِينَ
 مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴿١﴾
 فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَهُ
 مَا يُعْتِقُ. قَالَ: فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ شَيْخٌ
 كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ. قَالَ: فَلْيُطْعِمْ سِتِينَ مِسْكِينًا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ. قَالَتْ: قُلْتُ: وَاللَّهِ يَا
 رَسُولَ اللَّهِ مَا ذَاكَ عِنْدَهُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنَّا سَأَعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ.
 قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ سَأَعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ. قَالَ: قَدْ أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتِ.
 فَادْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكَ خَيْرًا. قَالَتْ: فَفَعَلْتُ « (٢)

ذاك هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله ﷺ والمرأة
 التي جاءت تُجادل فيه. سمع الله قولها، وعائشة رضي الله عنها في جانب البيت لم تسمع ما
 تقول. قالت عائشة رضي الله عنها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ

(١) المجادلة: ١ - ٤.

(٢) أحمد: مسند القبائل، حديث خولة بن ثعلبة رضي الله عنها، رقم ٢٦٠٥٦.

خَوَّلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيْهَا كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا... الآية﴾ (١)

إحاطة بكل شيء، ورعاية لشئون الخلق صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعُزُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢)

امرأة تشكو إلى رسول الله ﷺ ما وَقَعَ من زوجها، وما يترتب على قوله ذا: «أنت عليّ كظهر أمي» من نتائج وآثار، فلا يلبث الوحي أن يجيء بخبر السماء ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

قضية الحوار تُذكرُ ومعها الحكم من الله ﷻ، تجابُ به المرأةُ المجادلةُ، ويجابُ به غيرها ممن يقع معها مثل ما وقع، ودلالته أن لا نستصغر شأنًا من شئوننا، أو نخقر عملاً من أعمالنا؛ فإن طَمَعَ الشيطان فيما نستصغره، ورضاه فيما نخقره. وإنَّ كُلَّ شَأْنٍ من شئوننا لَهُ قَدْرُهُ وَحِسَابُهُ في ميزانِ الله ﷻ.

(١) النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم ٣٤٠٦.

(٢) يونس: ٦١.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (١)

فهل تعي المراة دلالة الآيات في تكريمها، ورعاية حقوقها، وسماع الله لقرئها
وشكواها، فتدرك أن لها شأن وأي شأن، وأن صغير أمرها وكبيره يحيط الله به،
ويحاسب عليه، فلا تُخذع بما يُزيّن لها من شعاراتٍ منافيةٍ لدين الله باسم (التكريم)
و(التقدم) و(تقرير الحقوق)؛ فليس بعد تكريم الله تكريم، ولا بعد الحق إلا الضلال.

فإذا بُعدت عن دين الله فقد أهينت. ولن يرفعها من مهانتها - إن فرطت في
جنب الله - تكريم البشر ﴿وَمَنْ يَنْهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ (٢)

فلتطيب المراة نفساً بعباء الخالق، ولتحذر من عبث المخلوق ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٣)

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) الحج: من الآية ١٨.

(٣) البقرة: من الآية ٢٣٥.



أخي المسلم:

لقد بايع الرسول ﷺ النساء، كما بايع الرجال. وجاءت بيعة النساء في قوله تعالى من سورة "الممتحنة": ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

روى البخاري في صحيحه، عن عُرْوَةَ «أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، بِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ.... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ بَايَعْتُكِ. كَلَامًا، وَلَا - وَاللَّهِ - مَا مَسَّتْ يَدُهَا يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكَ» (٢)

وأخرج البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرٍ، وَهُوَ أَحَدُ الثُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ - «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ:

(١) الممتحنة: ١٢.

(٢) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ، رقم: ٤٥١٢.

بَايعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِيَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ. فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ. فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ» (١)

بايع الرسول ﷺ الرجال، كما بايع النساء على ما جاء في هذه الآية. وشروط البيعة ﴿أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقُوا وَلَا يَزْنُوا وَلَا يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَأْتُوا بِيَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾

أولُ هذه الشروط: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا﴾؛ فإن الشرك مُحِبٌّ للعمل. وحقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ومن لم يبرأ من الشرك لم يكن أتياً لعبادة ربّه، وإن بدا له أنّه قد أدّى ما وَجَبَ عليه.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)

إن الشرك أعظم الذنوب. والله - جَلَّ وَعَلَا - لا يغفرُ أن يُشْرَكَ به، وما دون ذلك فهو داخلٌ تحت مشيئته سبحانه، إن شاء غفر، وإن شاء عذّب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم ١٧.

(٢) الزمر: ٦٥.

بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْتَرَىٰ إِنَّمَا عَظِيمًا ﴿١﴾

﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ﴿٢﴾

فعلي المسلم أن يحترس منه، وأن يخافه في جميع أمره؛ فإنه أفبح القبح، وأظلم الظلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ هُوَ يَعِظُكَ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ ﴾ ﴿٣﴾

فلنحذر الشرك الظاهر والخفي، وهو أن يُرائي الناس بعمله، وقد سَمَّاهُ الرسولُ

ﷺ (الشرك الخفي) كما سَمَّاهُ (شرك السرائر).

روى ابنُ ماجة في سننه، عن أبي سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « خَرَجَ عَلَيْنَا

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ

عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى. فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ

الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيَزِينُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » ﴿٤﴾

وروى ابنُ خزيمة في صحيحه، عن محمود بن لبيد قال: « خرج علينا رسولُ الله

ﷺ، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَشِرْكُ السَّرَائِرِ. قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟

(١) النساء: ٤٨.

(٢) المائدة: من الآية ٧٢.

(٣) لقمان: ١٣.

(٤) ابن ماجة: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، رقم ٤١٩٤.

قال: يقوم الرجل فيصلي، فيزيّنُ صلاته؛ لِمَا يرى من نظَرِ الرجل إليه. فذلك شرُّك السرائر» (١)

وقد بينت السنة المطهرة أموراً كثيرة يجب على المسلم أن يحذرهما؛ حتى لا يقع في الشرك، فيهلك مع الهالكين.

إذا مَرَضَ الإنسانُ قد يُسَوَّلُ له الشيطانُ أن شفاءَهُ يتوقَّفُ على بُسِّ كذا وكذا، بل قد تُسَوَّلُ له شياطينُ الإنس أن يفعل ما لا يجوز فعله، من بُسِّ حلقة أو خيط أو تيممة؛ ليذهب مرضه، وترتفع عِلَّتُهُ ! وينسى أن الشفاءَ لا يُطَلَبُ إلا من الله، ولا يقدر عليه أحدٌ غيره ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٢)

روى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَبْصَرَ عَلَى عَضْدِ رَجُلٍ حَلَقَةً - أَرَاهُ قَالَ: مِنْ صُفْرِ - فَقَالَ: وَيْحَكَ ! مَا هَذِهِ !؟ قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. قَالَ: أَمَّا إِنَّهَا لَا تَرِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا. أَيْدَهَا عَنْكَ؛ فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا» (٣)

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾

الشرك أول شروط المبايعة. بدأ به النبي ﷺ؛ لأنه أخطر شيء يُؤدي بالإنسان، ويحبط عمله.

فعلى المرأة - وهي تأخذ نفسها بشروط هذه البيعة - أن تتدبّر ما فيها، وأن تحذر - أول ما تحذر - أخطرها شأنًا ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ وأن تقصد

(١) صحيح ابن خزيمة: باب جماع أبواب الأفعال (١٥/٤) رقم ٨٩٢.

(٢) الشعراء: ٨٠.

(٣) أحمد: أول مسند البصريين، حديث عمران بن حصين ع، رقم ١٩١٤٩.

بجميع عملها وجهه ربها؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه.

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (١)

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « قَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرٌ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ » (٢)

فلنصحح النية والفصد، وليكن عملنا - دائماً - موافقاً للشرع، نتبع ولا نتبدع، نأخذ ما أمرنا الرسول ﷺ به، وننتهي عما نهانا عنه.

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ بِقَايَةِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى

رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٦) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٧)

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه.

(١) البينة: ٥.

(٢) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٥٣٠٠.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) المؤمنون: ٥٧ - ٦١.



أخي المسلم:

جاء في بيعة النساء قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ هُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

وقد تحدثنا من قبل في أول هذه الشروط: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ وهذا أظلم الظلم، وأقبح القبيح ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢)

فعلى المسلمة أن تحذر الشرك وما يؤدي إليه، وأن تكون على بصيرة في جميع أمرها؛ حتى لا تقع في الشرك، أو تصاب بلوثة منه ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءَ فَتَخْطَفُهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣)، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٤)

(١) الممتحنة: ١٢.

(٢) المائدة: من الآية ٧٢.

(٣) الحج: ٣١.

(٤) الكهف: من الآية ١١٠.

ومن شروط هذه البيعة ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾

شروط تُحقق مكارم الأخلاق، وتُحرر النفس من عبودية الشهوات.

﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾؛ فإن السرقة خيانة تُحلُّ بالشَّرَفِ، وتُسقط الكرامة. والإسلام

لم يدع للإنسان مجالاً للوقوع في هذه الجريمة، ومن وقَعَ فيها - بعد تحقيق ما أمر الله به من رعاية وتعاونٍ وتكافل - وجب أن يُقام عليه الحدُّ دون شفاعَةٍ أو تهاونٍ، ما دام الأمر قد ثبت بلا شبهةٍ أو معذرة.

« وَإِيمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا » (١)

شرع فيه طهارة للمجتمع من عبثِ العابثين وإفسادِ المفسدين.

﴿وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢)

والحرمةُ الكرعةُ تأنفُ من الوقوع فيما ينافي كرامتها، ويُحلُّ بشرفها، وتبتعد عن كلِّ ما يُسيء إلى سُمعتها.

سمعت هندُ بنتُ عتبة، امرأةُ أبي سفيان - وهي تباع مع النسوة اللاتي بايعنَ بعد فتح مكة - سمعت شروطَ المبايعَةِ، وفيها ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾، فقالت: « يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ. فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) البخاري: كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفِعَ إلى السلطان، رقم ٦٢٩٠.

(٢) الإسراء: ٣٢.

عَلَيْهَا: خُذِي مِنْ مَّالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ» (١)

فَلَمَّا سَمِعَتْ «وَلَا يَزْنِينَ» قَالَتْ: «أَوْتَرِّبِي الْحُرَّةُ؟!»

وَمِنْ قَدِيمِ حِفْظِ النَّاسِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ: «تَمُوتُ الْحُرَّةُ، وَلَا تَأْكُلُ بَنَدِيِّهَا».

فَالْحُرَّةُ عَفِيفَةٌ شَرِيفَةٌ. وَالْإِسْلَامُ قَدْ جَعَلَ دَوَافِعَ الْعِفَّةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ - مِنْ إِخْلَاصِ الْإِنْسَانِ لِرَبِّهِ، وَخَشْيَتِهِ مِنْهُ - فَاسْتَفَادَ الْحُرُّ بِدِينِهِ أَجْرًا وَزُخْرًا.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ (٢)

وِخْيَارُ النَّاسِ حِينَ انْتَقَلُوا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا خِيَارَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ؛ بِفِقْهِهِمْ، وَإِخْضَاعِ مَقُومَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ لِمَرْضَاتِ رَبِّهِمْ، فَالشَّجَاعَةُ قَدْ تَوَجَّدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَوَجَّدَتْ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَخْوَةٌ، وَحَمِيَّةٌ، وَفَخْرٌ. وَهِيَ فِي الْإِسْلَامِ خَاضِعَةٌ لِمَثَلِ غُلِيَا، شَجَاعَةٌ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَخُرُوجُ مَنْ حَظَّوْظَ النَّفْسِ إِلَى مَرْضَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

وَالْحُرَّةُ تَأْتِي أَنْ تَقَعَ فِي الزَّانَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ حِفَاطًا عَلَى شَرَفِ الْأُسْرَةِ، وَقِيَمَتِهَا وَوَضْعُهَا الْاجْتِمَاعِي، وَهِيَ فِي الْإِسْلَامِ تَأْتِي الزَّانَا؛ خَشْيَةً مِنْ رَبِّهَا، وَطَلْبًا لِمَثُوبَتِهِ. فَتَأْخُذُ الصِّفَةَ مَعَ الْإِيمَانِ طَائِعَ الثَّبُوتِ وَالشُّمُولِ.

وَلَا يَقْنَعُ صَاحِبُ الْخُلُقِ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَسْتَقِيمَ فِي نَفْسِهِ فَحَسَبَ، بَلْ يَسْتَقِيمُ فِي نَفْسِهِ، وَيَدْعُو غَيْرَهُ، وَيَمْشِي بِنُورِ رَبِّهِ فِي النَّاسِ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ بِجَمِيعِ عَمَلِهِ، وَيَذْكُرُ رَبَّهُ وَلَا يَنْسَاهُ.

(١) مسلم: كتاب الأفضية، باب قضية هند، رقم ٢٣٣٣.

(٢) الطلاق: من الآية ٥.

وبهذا الإيمان ترتفع القيم ولا تهبط، وتحمل صاحبها إلى الفوز والفلاح.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ

يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَا سَاقُونَ ﴿٦١﴾﴾^(١)

في حديث الإفك الذي استهدفت به عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ وبنيت الصديق رضي الله عنه. لما سمع والدها بالأمر قال كلمة ثبني عن أصالة الخلق في هذا البيت الكريم « والله ما رُمينا بهذا في الجاهلية، أفرضي به في الإسلام ؟ »

لا، إنه بالإسلام أعزُّ وأكرم، ولا يزيد الإسلام صفات الخير ومكارم الأخلاق إلا ثباتاً، ويعظم الله لأهلها أجراً.

وكفى أن ينزل الله في زوج الرسول ﷺ قرآن يُتلى، وكم كابدت من ألم وهي تسمع ما سمعت من قول يفترى الكذب؛ لينال من عرضها، فاستغاثت بربها، ولجأت إليه ﴿فَصَبِّرْ حَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٦٢﴾﴾^(٢)

تقول رضي الله عنها: « فلما أنزل على رسول الله ﷺ وسري عنه، كانت أول كلمة تكلم بها: يَا عَائِشَةُ، أَمَا اللَّهُ وَرَبِّي فَقَدْ بَرَأَكَ. فَقَالَتْ أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ وَرَبِّي »^(٣)

لقد كان استعظامها للأمر كبيراً، فلم تُطِق أن تسمع ما سمعت، وعندما أخبرتها "أُمُّ مِسْطَحٍ" بما خاض فيه الناس، أخذتها الحمى.

(١) المؤمنون: ٦٠، ٦١.

(٢) يوسف: من الآية ١٨.

(٣) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا، رقم ٤٣٨١.

روى الطبراني بإسناد صحيح، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: « لما بلغني ما تكلموا به هممتُ أن آتي قليلاً^(١) فأطرح نفسي فيه »^(٢)

كانت لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم - كما حدثت عن نفسها - وظل هذا حالها حتى نزلت براءتها.

سمو، وطهر، وعفة.. لا ترضى أن تُحدث ولو بكلمات زور وبُهتان.
والله يدافع عن الذين آمنوا، ويجعلُ سهامَ الأفاكين شراً على أصحابها، خيراً لمن رُموا بها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)

فعلى المسلمة أن تتميز بعفتها، وأن تسمو بأخلاقها، وأن تتخذ من أمهات المؤمنين مثلاً لحياتها؛ فإن الدنيا تشدها؛ لتصلح بها ما فسد من أخلاق الناس. وعليها يتوقفُ إنسانُ الغد، فهي أمُّ، والأم مدرسة، فإن صلحت صلح غدنا، وانتصرنا بنصر الله على أعدائنا.

(١) القليب: البئر القديمة.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ١٢١/٢٣، رقم ١٥٧.

(٣) النور: ١١.



أخي المسلم:

وقفنا معاً - في الحديث الماضي - عند شروط البيعة. بيعة النساء التي جاءت في قوله تعالى من سورة الممتحنة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

وقد عرفنا من شروط البيعة ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ ورجونا أن تحقق المرأة المسلمة - في كل زمان ومكان - هذه الشروط، كما حققتها المرأة المسلمة من قبل، فأخرجت للناس رجالاً سعدت بهم الدنيا، ورأت من طهرهم وبسالتهم وعدلهم ما صار مضرباً مثلاً للأجيال من بعدهم.

واليوم نمضي معاً؛ للنظر فيما بقي من شروط البيعة ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾

ونحن نعرف ما كان عليه أمر الجاهلية من وأدٍ وقتلٍ، وما قد يصير إليه الأمر من وأدٍ خفيٍّ، وقتلٍ بأساليب متنوعة تُعبرُ كلها عن جهلٍ وسوء قصد.

فالأولاد إذا كان الضيقُ بهم من إملاقٍ أو خشيةٍ، فَرَزَقُوا هَوْلًا وأولئك على الله.



﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ^(١)

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ^(٢)

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ^(٣)

قال ابن كثير: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعمُّ قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء.

﴿ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِتَنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ ﴾ أي: لا يلحقن

بأزواجهن غير أولادهم، وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك. فذلك البهتان المفترى. وقيل: معنى ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يأخذنه لقيطاً، ﴿ وَأَرْجُلِهِمْ ﴾ ما ولدته من زنى.

وفي حديث أبي داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه « أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ الْمُتْلَعَيْنِ -: أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُعُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » ^(٤)

﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ولم يجعل الله طاعةً لنبیه ﷺ إلا في المعروف.

(١) هود: من الآية ٦.

(٢) الأنعام: من الآية ١٥١.

(٣) الإسراء: من الآية ٣١.

(٤) أبو داود: كتاب الطلاق، باب التغليظ في الانتفاء، رقم ٩٢٨.

والمعروف كل طاعة، وهو يشمل جميع ما يأمرهن به رسول الله ﷺ من شرائع الإسلام وآدابه.

أخرج مسلم في صحيحه، من حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يُبَايِعُنكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِإِلَهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قَالَتْ: كَانَ مِنْهُ النَّيَاحَةُ» (١)

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: لَا يَشْقُقْنَ حَبِيًّا، وَلَا يَخْمِشْنَ وَجْهًا، وَلَا يَنْثُرْنَ شَعْرًا، وَلَا يَدْعُونَ وَيَلًا» (٢)

إذا بايعتك على هذه الشروط ﴿فَبَايَعْتُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بَيَعَةٌ تُطَهَّرُ بها النفسُ من لَوْثَةِ الشَّرْكِ، وظلام الإفك، وتتحَرَّرُ من أَسْرِ الهوى والشهوة، وتنتصرُ في ميدان الفضائل، وتسمو بإيمانها واستقامتها.

وإذا استطاع كلُّ إنسان أن ينتصر على نفسه - بانتصار فضائله - كان أقدر على تحقيق ذلك في مجتمعه «إنك لن تنصر الله في معركة، حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك، وإذا استوينا مع غيرنا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة. وإلا نُتَصَرَ بفضلنا، لم نغلب بقوتنا».

(١) مسلم: كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم ١٥٥٤.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٦١/٣، رقم ١٢١٠٨.

وعظمة هذا الدين تكمن في: تطهير النفس، وتربيتها، وإعدادها إعداداً يصلح به أمر المجتمع؛ فالاجتماع لبنائه الأفراد، يقوى بقوة أفراد، ويضعف بضعفهم.

والدين الذي تصلح به النفس - ظاهراً وباطناً - وتتحلى عن الرذائل، وتتحلى بالفضائل، جدير أن يحقق للمجتمع أعظم ما يحتاج إليه من أمن، وبر، وسلام

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْتَهُنَّ وَاسْتَغْفَرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

بيعة على اجتناب الرذائل، واكتساب الفضائل.

بيعة تطهر المجتمع من الإساءة في جميع صورها.

والاجتماع الذي يطهر من الشر كن ترتفع فيه الرعوس، وتسمو النفوس.

والاجتماع الذي يطهر من السرقة، يأمن أفرادُه على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

والاجتماع الذي يعفُ أفرادُه عن المحرمات، تنشأ فيه الأمم الطهور التي تُنجبُ حملة الرسالة والأممَاء عليها. وهل بادت الأمم إلا بالمعاصي والشهوات؟ وهل لعن من لعن إلا بائع وعدوان؟ ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٢) كانوا لا يتناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣)

(١) المائدة: ٧٨، ٧٩.

ولذا كانت مهمة الرسل تزكيةً وتطهيراً وتعليماً ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١)

فهل تعي المراة المسلمة أمرَ دينها، وتُحقق بيعةَ نبيها، وتذكر نعمةَ ربها؟
فإنَّها إنْ وَفَّتْ، فَازَتْ وَرَبِحَتْ.

﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢)
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣)

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) النور: ٥٢.

(٣) النحل: ٩٧.



أخي المسلم:

يُرْغَبُ الإسلامُ في الزواج، ويحثُّ عليه، ويأمرُ به.

ولا يخفى على أحدٍ ما للزواج المُبَكَّر من آثارٍ في حياة الفرد والمجتمع: صَوْنًا، وَعِفَّةً، وتكاثرًا، ونموًا. وهو من سنن المرسلين. وَمَنْ يَرْغَبُ عنه - وهو قَادِرٌ عليه - فقد خَالَفَ وَعَصَى. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتِلْكَ أَدَّتِي وَرَبَعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدَّتِي أَلَّا تَعُولُوا﴾ (١)

وقال الرسول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ (٢) فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ (٣)» (٤)

وأنكر الرسول ﷺ على مَنْ رَغِبَ عنه وهو قَادِرٌ عليه، وعدَّه راغبًا عن سنَّته، وَمَنْ رَغِبَ عن سنَّته فليس منه. يقول أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا (٥) فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا

(١) النساء: ٣.

(٢) البَاءَةُ: الْجَمَاعُ، وقيل: مَوْنُ النِّكَاحِ.

(٣) الْوِجَاءُ: هُوَ رِضْنُ الْخُصْمَيْنِ. وَالْمُرَادُ هَا هُنَا: أَنَّ الصَّوْمَ يَقْطَعُ الشَّهْوَةَ، وَيَقْطَعُ شَرَّ الْمَنِيِّ كَمَا يَقْطَعُ الْوِجَاءُ.

(٤) البخاري: كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، رقم ٤٦٧٧.

(٥) أي: عَذُّهَا قَلِيلَةً.

فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَرِلُ
النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟
أَمَّا - وَاللَّهِ - إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ،
وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» (١)

وتحقيق هذه السنة ضروري؛ لحماية الفرد والمجتمع من الفساد والضياع.

ومن التيسير في تحقيقها: عدم الإسراف والمبالغة في الإنفاق، مما يعسر أمر
الزواج أو يعوقه.

وعلى المسلم والمسلمة أن تُراقب الله فيما ترغب وتطلب، فينشد الرجل المرأة
لدينها، وترغب المرأة فيمن هو ذو دينٍ وخلقٍ؛ فالحياة الزوجية مُمتدة، تذهب فيها
الأعراض ويبقى الجوهر، وتروح الزينة وتبقى القيمة.

« إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرَوْجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي
الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِضٌ » (٢)

أما الغنى والفقر، والزينة والمتاع، فتلک أعراضٌ تتبدل وتتغير

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا
فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ (٣)

إن الأرزاق بيد الله وحده. فمن أطاع الله، ورغب فيما رغب فيه ودعى إليه.

(١) البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٤٦٧٥.

(٢) الترمذي: كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، رقم ١٠٠٤.

(٣) النور: ٣٢.

أنجز الله له ما وعده به من الغنى، وبارك له فيما أعطاه.

وإذا كنّا قد نهينا عن الإسراف والتبذير في كلّ شيء ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (١) فعلينا أن
 إنّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ط وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢﴾ (٢) فعلينا أن
 ندرك ما يؤدّي إليه التبذير من مفساد فيما نحن بصدده من أمر الزواج؛ ذلك أن
 التبذير سيصبح - مع الزمن - عرفاً متبعاً في حياة الناس، والناس يُقلّد بعضهم بعضاً،
 وفي ذلك من تعطيل الزواج وتأخير ما فيه؛ لأن كثيراً من الناس يصعب عليهم ما
 يتطلبه الزواج من تكاليف، ويشق عليهم أن يجدوا مؤنته، وقد أمرنا بالتيسير «يَسْرُوا
 وَلَا تُعَسِّرُوا» (٣)، والتيسير لأسباب الحلال يُغلق أبواب الحرام، ويرفع عن الشباب
 المشقة والعنت، ويحقق العفة في السلوك، ويصون الشباب من الوقوع فيما حرم الله،
 ويحفظ للبيوت حرمتها وكرامتها.

والله - جلّ وعلا - يأمرنا رجالاً ونساءً بتقوّه؛ لأن التقوى ضمان لإعطاء
 الحقوق، والقيام بالواجبات، بلا مجاوزة أو انتقاص، وبالتقوى تستقيم الحياة الزوجية
 من أوّل أمرها، فلا تبدأ بتبذير يفتح الباب لعبث الشيطان، ويلحق صاحبه بإخوان
 الشياطين ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ط وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٤) (٣)

وبالتقوى تستقيم العشرة بين الزوجين، وتسمو النفوس عن سفاسف الأمور،
 وتقصد علياءها، ويظفر الزوجان بالنجاح في مواجهة ما يقابلهما من سرّاء وضرّاء،
 ويسرّ وعُسّر، وغضبٍ ورضى.

(١) الإسراء: ٢٦، ٢٧.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم ٣٢٦٤.

(٣) الإسراء: ٢٧.

وللنفس مع كُلِّ حالٍ شأنٌ، فإنْ عُصِمَتْ بتقوى الله، لم تتعدَّ حدودَه.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ (١)

فما أَمَرْنَا بشيءٍ ودُعِينَا إليه، أو نُهِنَا عن شيءٍ وأَمَرْنَا باجتنابه، إلَّا وكُنَّا مسئولين بين يدي الله عنه ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصُنَّ عَنْهُمْ بِعِلْمٍ ۙ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝﴾ (٢)

إن تقوى الله التي أَمَرْنَا الله بها - رجالاً ونساءً - هي التي تُحَقِّقُ الطمأنينة، وتحفظ المودةَ والرحمةَ في حياة الأسرة. فتسكن النفسُ إلى صفاتٍ تَأْمَنُ معها، ويقوم البيتُ على مقوماتٍ أصيلةٍ من الأخلاق، لا تدعُ بحالاً لمرضى القلوب يعبتون بالحرُمات.

(١) النساء: ١.

(٢) الأعراف: ٦ - ٩.



أخي المسلم:

لله في الآفاق وفي أنفسنا آيات تدعو إلى الحق، وتعين على الصدق، وتوحي بالاستقامة.

ومن آياته في أنفسنا: أن خلق منها أزواجاً لنسكن إليها، وجعل بيننا مودةً ورحمةً. فبفضله تكون المودة، ومن رحمته يترحم الناس جميعاً، حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها؛ خشية أن تُصيبه.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

وفي قوله: ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ بيان لحقيقة الصلة بين الرجل والمرأة. وفي قوله: ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ تكرم للمرأة أي تكرم، وبيان لحقيقة وظيفتها، وما تؤديه في حياة الرجل ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

ولكي تؤدي المرأة وظيفتها التي خلقت لها، عليها أن تشعر بنعمة الله وفضله عليها. إن الرجل - بفطرته - يأوي إليها، ويسكن إلى خصائصها، فعليها أن تُعنى بهذه الخصائص، وأن تحافظ عليها، وليكن سعيها وعملها متسقاً مع ما فطرت له، فلا يرى الرجل منها ما يُنفّر عنها.

(١) الروم: ٢١.

وهي مأجورة من الله حين تؤدّي وظيفتها على النحو الذي فطرت عليه،
وخلقت من أجله.

وهذا جزاؤها عند ربّها إن هي حققت رضى زوجها (في غير معصية الله).

روى الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة» (١)

وما من شيء يُحقّق المودة بين الزوجين إلا ودعى الإسلام إليه، وما من شيء يُضعف المودة أو ينال منها، إلا وينهى عنه، ويحذر منه.

في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضباناً عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح» (٢)

وفي رواية لمسلم: «إذا باتت المرأة هاجرةً فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتى تصبح» (٣)

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعوا امرأته إلى فراشها، فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء سائحاً عليها حتى يرضى عنها» (٤)

ولا يخفى ما يترتب على الهجر من آثار نفسية بين الزوجين. والإسلام حريص

(١) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على الزوجة، رقم ١٠٨١، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٩٨.

(٣) مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم ٢٥٩٤.

(٤) مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم ٢٥٩٥.

على تحقيق المودة، والمحافظة عليها، وتيسير أسباب الرحمة، والحث عليها.

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ... » (١)
إن الشرع الحكيم وهو يأمرها بطاعة زوجها - في غير معصية الله - يأمر الرجل كذلك بأن يكون حسن العشرة.

روى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ » (٢)
إن الإسلام يوصي المرأة، ويوصي الرجل؛ إبقاءً للمودة والرحمة التي جعلها بينهما.

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَخْوَصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «... أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا. فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلَا وَحَقُّنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ » (٣)

أخي المسلم: إننا جميعاً نقضي أجلاً محدوداً في دار اختبار وامتحان. فليكن عزمنا دائماً - على مرضات الله في جميع أمورنا؛ فإن ذلك يُحقق لنا الطمأنينة والأمن في عاجلِ أمرنا وآجلِهِ.

(١) مسلم: كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه، رقم ٤٧٩٦.

(٢) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١٠٨٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١٠٨٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعلى المرأة أن تكون حريصة - دائماً - على مرضات ربها، في الوفاء بحق زوجها، وعلى الرجل أن يكون كذلك؛ فكلالهما عند صاحبه دخیل، يوشك أن يفارق، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، فيما رواه الترمذي عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذي - قاتلك الله - فإنما هو عندك دخیل، يوشك أن يفارقك إلینا » (١)

إن مدة المقام في الدنيا - وإن طالت - يسيرة، بالنظر إلى الآخرة التي لا أمد لها، فلنحافظ على المودة التي جعلها الله بيننا، ولنتراحم برحمة الله؛ فإن الراحمين يرحمهم الرحمن، ومن لا يرحم لا يرحم. « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٢)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

إن المرأة الصالحة خير متاع الدنيا، وإليها يسكن الرجل ويطمئن، ويجد عندها راحة نفسه، وطمأنينة قلبه. ومنها يكون الجيل الذي تنشده أمة الإسلام لغدها، وتطلبه لصيانة كرامتها ومقدساتها.

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » (٣)

(١) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، رقم ١٠٩٤، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم ١٨٤٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) مسلم: كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم ٢٦٦٨.



أخي المسلم:

يدعو الإسلام إلى حُسْنِ العشرة، والمودَّة بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَتَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝﴾ (١)

وروى مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَا يَفْرَكُ (٢) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ » (٣)

وهذا من حِرْصِ الإسلام على تحقيق الرضا والمودَّة بين الزوجين. والمعنى: إذا رأى الزوج من زوجته ما يكرهه، فعليه أن يتأمل الجانب الحسن فيها، وليس في الناس معصومٌ من خطأ، والمعصوم من عصمه الله من نبيٍّ ورسولٍ.

وميزان الإنسان من حسناتٍ وسيئات، وفلاحه في رُجحان حسناته.

فلا يليقُ بالمسلم أن يلتفت إلى عيوب الناس، ويُنكر فضائلهم؛ فإن الشيطان يحرص - دائماً - على أن يُريك في أخيك ما تُبغضه؛ ليوقع العداوة بينكما، ويُوغر الصدور بسفاسف الأمور.

وقد يتساءل البعض: إذا كان الإسلام حريصاً على تحقيق المودَّة والرحمة بين

(١) النساء: ١٩.

(٢) أي يُبغض ويكره.

(٣) مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٢٦٧٢.

الزوجين، فلم أباح الطلاق، وفيه ما فيه من تمزيق الروابط، وتفريق العشرة ؟

والجواب: إن الإسلام شرع الطلاق؛ لضرورته. وجعله أبغض الحلال إلى الله، وما من وسيلة تجمع الشمل، وتصون الألفة، وتحفظ العشرة، وتحقق المودة والرحمة، إلا ودعى الإسلام إليها ورغب فيها.

ومن حرص الإسلام على قيام الألفة، وتحقيق الرحمة إن بدا خلاف، أو خيف شقاق بين الزوجين، نذب إليه حكماً من أهله وحكماً من أهلها، وجعل سعيهما في الإصلاح موفقاً مبروراً.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١)

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢)

وهكذا لا يدع الإسلام سبيلاً لتحقيق الوفاق، ودوام العشرة، وقيامها على المعروف، إلا سلكه.

وفي حالة الطلاق لم يجعله طلاقاً واحداً، تنفصم معه العشرة في الحال وكفى، بل جعله على مراحل يمكن معها أن يرجع الإنسان نفسه.

(١) النساء: ٣٥.

(٢) النساء: ١٢٨.

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ ۚ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ (١)

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات ما رواه البخاري عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَرَّةٌ فَلْيَرَا جَعَلَهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكَهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ » (٢)

من هذا ندرك مدى التوسعة التي قدّمها الإسلام في هذا المجال؛ لتعاود النفس أمرها، وتُثوب إلى رُشدِها ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ﴿٣﴾.

ثم بعد ذلك، وبعد تقديم التّصحّح والإرشاد، وبذلّ كلّ ما يمكن لإصلاح ذات

(١) الطلاق: ١-٣.

(٢) البخاري: كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ، رقم .٤٨٥٠.

الْبَيْنِ، وَتَحْقِيقَ حَيَاةٍ بَارَّةٍ، هَلْ مِنْ الْمَصْلَحَةِ فِي شَيْءٍ - وَقَدْ عَجَزَتْ جَمِيعُ الرِّسَالِ، وَأَصْبَحَتْ الْحَيَاةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ جَحِيمًا لَا يُطَاقُ - أَنْ تُفَرَضَ عَلَيْهِمَا الْعِشْرَةُ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا ضَرَرًا لِأَحَدِهِمَا أَوْ كِلَاهُمَا ؟

لا. إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْنَا الْإِحْسَانَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا. وَمِنْ الْإِحْسَانِ أَنْ تَعْدَلَ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَى، وَفِي الطَّلَاقِ أَوْ الْإِمْسَاكِ.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنِ^(١)﴾

وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ طَلَقَتَيْنِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الثَّالِثَةِ. فَإِذَا أَنْ يُمَسِّكَهَا بِمَعْرُوفٍ، فَيُحَسِّنُ صُحْبَتَهَا، أَوْ يُسَرِّحَهَا بِإِحْسَانٍ، فَلَا يَظْلِمُهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا.

هَذَا هُوَ الْمَقْدُورُ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ: هَلْ كُلُّ سَبَبٍ يَصْلُحُ مُبِيحًا لِلطَّلَاقِ ؟

ذَلِكَ مَا نَحَاوُلُ الْإِجَابَةَ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ الْقَادِمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

(١) البقرة: من الآية ٢٢٩.



أخي المسلم:

في حديث سابق قلت: إن الإسلام لم يجعل الطلاق واحداً تنفصم معه العشرة بل جعله على مراحل يمكن معها أن يراجع الإنسان نفسه، وأن تدبر المرأة أمرها، إن كانت قد فرطت أو أساءت ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (١)

وفي هذه التوسعة التي قدمها الإسلام بحال لتعاود النفس أمرها، وتثوب إلى رشدها. وفي ختام الحديث السابق تساءلنا: هل كل سبب يصلح مبيحاً للطلاق؟ وهل العشرة بين الزوجين من الهوان بحيث يجوز قطعها والإضرار بها لأدنى سبب من الأسباب؟ أم أن الطلاق يكون حيث توجد ضرورته، وقد يرفع ضرراً أشد؟

لقد بين العلماء متى يكون الطلاق مباحاً؟ ومتى يكون مكروهاً؟ ومتى يكون محظوراً؟ فيباح عند دفع الضرر، وقد يستحب إذا ما كانت المرأة مفرطاً في حقوق الله الواجبة عليها - كالصلاة ونحوها - وقد عجز الزوج عن إجبارها عليها، وقدم من النصح والإرشاد والقدوة ما ترتفع به المَعذرة. أو كانت غير عفيفة، وكان في إمساكها نقص ودناءة، وربما أفسدت فراشه، وأساءت إليه، ولا ينبغي إمساك غير العفيفة. ويكون مكروهاً لغير الحاجة، وقد يحرم إذا أضر بنفسه وزوجته.

يقول الرسول ﷺ: « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » (٢)

وقد يكون محظوراً وذلك إذا طلق المدخول بها في حيضها، أو في طهرها الذي

(١) الطلاق: من الآية ١.

(٢) ابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم ٢٣٣٢.

أصابها فيه، وهو طلاق البدعة؛ لمخالفة أمر الله تعالى في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (١)

وقد جاء في الحديث المتفق عليه، عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَرَّةٌ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهَرَ، ثُمَّ تَحِيضُ، ثُمَّ تَطْهَرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أُمْسِكْ بَعْدَ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ؛ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطْلَقَ لَهَا النِّسَاءُ» (٢)

والذي يتدبر شرع الله، ويتمسك به، ويتبع ولا يتدع، لا يخالف ما أمر في أي شأن من شئونه، ولا يُصر على خطأ إن وقع منه.

وشرع الله - كما ترى - حكيماً، لا حرج فيه ولا عسر. هو لمصلحة الناس، يُحلُّ لهم الطيبات، ويحرِّم عليهم الخبائث، فعلى الناس أن يتقوا الله في جميع أمرهم، وأن يحافظوا على الرحمة والمودة التي جعلها الله بينهم.

وعليهم أن يدركوا أن الطلاق ما شرع إلا لمصلحة، فلا يليق أن يكون إلا لغرض يرضاه الله ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣)

قد تستحيل الحياة بين القلوب المتنافرة، فمن المصلحة أن يكون الإمساك

(١) الطلاق: من الآية ١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البقرة: ٢٨١.

معروف، والتسريح بإحسان، لا أن يُجبر الزوجين - أو كلاهما - على حياة لا يستقيم فيها معروف أو إحسان.

وإذا كان الإسلام حريصاً - من أول الأمر - على تهيئة جميع ما يحقق الحياة الطيبة بين الزوجين، فعلينا أن نتبع أمره في حسن الاختيار، وأن نخضع هواناً لما أمرنا به من إثارة صاحب الدين، وصاحبة الدين.

ولا بأس أن نرى - بضوابط الشرع - من المرأة ما يدعو إلى زواجها؛ لما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ» (١)

جميع الوسائل التي تحقق للإنسان حياة طيبة قد هيأها الإسلام ودعى إليها، ورغب فيها، فعلى المرء أن يحسن نيته فيما يرغب أو يدع، وأن يؤثر مرضات الله فيما يختاره لنفسه أو يغيضه، بأن يحب الله، ويكره الله، فإن هوى النفس إذا لم يخضع لحكم الشرع، أضل وأذل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢)

فلتكن دوافعنا - في الرضى والغضب، والحب والبغض - في مرضات الله وتحقيق ما أمر، واجتناب ما نهى عنه؛ فإن المعصية تورث المذلة، وتجلب الفتنة.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣)

(١) أبو داود: كتاب النكاح، باب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها، رقم ١٧٨٣.

(٢) ص: من الآية ٢٦.

(٣) النور: من الآية ٦٣.

أخي المسلم: كن حريصاً في حياتك كلها على أن ينعم بيتك بذكر الله وطاعته، وليكن لك في بيوت النبي ﷺ خير أسوة. وهذا توجيه الله لنساء النبي ﷺ ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (١)

فلتكن بيوتنا على حالٍ يُمكنها من القدوة والأسوة ببيوت النبي ﷺ؛ لنظفّر بالحياة الطيبة في عاجل الأمر وآجله.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٢) الفحل: ٩٧.



أخي المسلم:

للمراء مكانتها في الإسلام. والإسلام يوصي بها خيراً، بنتاً كانت أو أختاً، أو زوجاً أو أمّاً. يُوصي بها في جميع الأحوال، ويجعل البرّ بها سبيلاً لمرضاة الله والفوز بالجنة. نقرأ في القرآن الكريم الوصية بالوالدين، وتأتي الوصية بهما بعد الأمر بعبادة الله، وعدم الإشراك به.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا^(١)﴾

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ^ط أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا^ط﴾^(٢)

ومع الوصية بالوالدين والإحسان إليها تنفرد الأم بمزيد من الوصية؛ لمزيد من البرّ وحسن الصُحبة.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ^ط لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ^ط﴾^(٣)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَنًا^ط حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا^ط وَحَمَلُهُ^ط

(١) النساء: من الآية ٣٦.

(٢) الأنعام: من الآية ١٥١.

(٣) لقمان: ١٤.

وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي
تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ
عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥١﴾» (١)

في الآيات بيان لما تلاقيه الأم وتكابده في حمل وفصال، وفي هذا البيان دعوة
لمزيد من البر والإحسان إلى الأم، بيان ما لها من إحسان وفضل.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾

وقد جاء في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ
مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ» (٢)

وفي رواية: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ،
ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» (٣)

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: «قَدِمْتُ
عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ

(١) الأحقاف: ١٥، ١٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

رَاغِبَةً (١) أَفَاصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ» (٢)

وروى الترمذي، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ لِي امْرَأَةً، وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلَاقِهَا. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ» (٣)

وروى أحمد، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ «جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ الْعَزْوَ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: الرِّمْمَا؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا» (٤)

أخي المسلم: تلك بعض وصايا الإسلام بالأُم، منها نُدرِكُ كيف كَرَّمَ الإسلامُ المرأةَ، ورفع مكانتها، وجعل الجنة لمن بَرَّ بِهَا وأكرمها.

بل جعل البرَّ بها تكفيراً لما قد يقع فيه الإنسان من ذنبٍ أو إثْمٍ.

روى الترمذي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا، فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَبِرَّهَا» (٥)

هذا ديننا، وهذا ما يدعو إليه، فهل تعي المرأة المسلمة ذلك، فلا تُفْتَنَ بشعاراتِ

(١) أي في شيء تأخذه وهي على شركها، ولهذا استأذنت أسماء في أن تصلها.

(٢) البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهبة للمشركين، رقم ٢٤٢٧.

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين، رقم ١٨٢٢، وقال: هذا حديث صحيح.

(٤) أحمد: مسند المكين، حديث معاوية بن جاهمة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم ١٤٩٨٩.

(٥) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة، رقم ١٨٢٧.

الغير، وتؤخذ بما يُقالُ عن حرية وحقوق المرأة ؟

أما أن لها أن تعي مكر أولئك الذين يريدونها لشهواتهم وأهوائهم ؟

فإذا ما صارت من العجائز أو القواعد، ألقوا بها في ملجأ العجائز، وحكم عليها بالموت حية !

وهل تعي المرأة المسلمة ما كرمها الله، فتنعم بعباء الخالق، وتبرأ من عبث المخلوقين؟



أخي المسلم:

للمرأة مكانتها في الإسلام، والإسلام يُوصي بها خيراً، بنتاً كانت أو أختاً، أو زوجاً أو أمّاً. يُوصي بها في جميع الأحوال، ويجعل البرّ بها سبيلاً لمرضات الله والفوز بالجنة.

وفي الحديث السابق رأينا وصية الإسلام بالأُمّ، وما حظّيت به من تقديرٍ وتكريمٍ.

وهذا التكريم لا ينقطع بالموت، بل يمتدّ. وما يُقدّمه الإنسان من برٍّ يبقى بعد الموت.

روى مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي بِجَارِيَةٍ، وَإِنَّهَا مَاتَتْ. قَالَ: فَقَالَ: وَجَبَ أَجْرُكَ وَرَدَّهَا عَلَيْكَ الْمِيرَاثُ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا صَوْمٌ شَهْرٍ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ: صُومِي عَنْهَا. قَالَتْ: إِنَّهَا لَمْ تَحُجَّ قَطُّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: حُجِّي عَنْهَا» (١)

وروى مسلم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمٌ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتِهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكَ عَنْهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَصُومِي عَنْ أُمِّكَ» (٢)

برٌّ دائمٌ يمتدّ وصلّه ولا ينقطع، ولا يأتي الموت إلا بفرقة الأجساد، وهي فرقة لا تدوم طويلاً، وغداً يلحق هؤلاء بأولئك، ويلتقي اللاحق بال سابق.

(١) مسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام عن الميت، رقم ١٩٣٩.

(٢) مسلم: كتاب الصوم، باب قضاء الصوم عن الميت، رقم ١٩٣٨.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾ ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢﴾

وإذا كان البرُّ بالوالدين لا ينقطع بعد موتيهما، فإن من الواجب علينا أن نُحقِّق ما أمر به الرسول ﷺ من: الصلاة عليهما (أي الدعاء لهما) وإنفاذ عهديهما من بعدها، وصلة الأرحام التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرام صديقيهما.

عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ: «بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِيٍّ شَيْءٌ أَبْرُهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا (٣) وَالْأَسْتِغْفَارُ لَهُمَا (٤) وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا (٥) وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا (٦) وَإِكْرَامُ صَدِيقَيْهِمَا (٧)»

المراة مُكْرَمَةٌ في الإسلام (أُمًّا أَوْ بِنْتًا) أَوْ (أُخْتًا أَوْ زَوْجًا) قَالَ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» (٨)

(١) المجادلة: ٦.

(٢) التغابن: ٩.

(٣) أي الدعاء. ومنه صلاة الجنائز. والمراد بها الترحم.

(٤) أي طلب المغفرة لهما، وهو تخصيص بعد تعميم.

(٥) أي إمضاء وصيتهما.

(٦) أي الإحسان إلى الأقارب.

(٧) أبو داود: كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم ٤٤٧٦.

(٨) مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٢٦٧١.

لقد مَحَا الإسلام ظلامَ الجاهلية، وأَنَارَ الحياةَ بنورِ الإيمانِ، ووجدت المرأةُ فيه حياتها وكرامتها - كما وَجَدَ الرجلُ - وحظيت بعنايةٍ فائقةٍ منذ ولادتها، وفي جميع حياتها، وبعد مماتها: دُعَاءٌ، واستغفاراً، وبرّاً، ورحمةً.

وكافأ الإسلامُ مَنْ رَعَاهَا، واعتنى بِشأنها بحنةِ الله ورضوانه، وأنعمَ به من جزاءٍ يتنافس عليه المتنافسون، فتحظى المرأةُ بأكرمِ الرعايةِ وأبرَّها. وقد كانت الجاهليةُ تراها سوءاً تتوارى منه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ ﴾ يتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩ ﴾^(١)

وجاء الإسلامُ؛ ليرفعَ من شأنِ الإنسانِ، ويُعليَ قيمتهِ ذَكَراً كان أو أنثى، رجلاً كان أو امرأةً ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ٦٠ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ٦١ ﴾^(٢)، ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٢ ﴾^(٣)، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ٦٣ ﴾^(٤)

(١) النحل: ٥٨، ٥٩.

(٢) آل عمران: من الآية ١٩٥.

(٣) النحل: ٩٧.

(٤) النساء: ١٢٤.

ولنستمع إلى حديث رسول الله ﷺ، وفيه البيان لما يراه الإنسان من أجر حين يصل ما أمر الله به أن يوصل، ويحقق ما أمر به من عناية بالمرأة، وإحسان إليها، وتربية وإعداد لها.

روى أبو داود والترمذي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ، أَوْ ابْنَتَانِ، أَوْ أُخْتَانِ، فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ، وَاتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ، فَلَهُ الْجَنَّةُ » (١)

وفي رواية: « مَنْ عَالَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ، فَأَدَبَهُنَّ، وَزَوَّجَهُنَّ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، فَلَهُ الْجَنَّةُ » (٢)

وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ عَالَ جَارِيتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ. وَصَمَّ أَصَابِعُهُ » (٣)

وأخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ عَالَ جَارِيتَيْنِ دَخَلَتْ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ. وَأَشَارَ بِأَصْبَعِي » (٤)

فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بما نعمة.

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم ١٨٣٩، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في فضل من عال يتيمًا، رقم ٤٤٨١.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، فضل الإحسان إلى البنات، رقم ٤٨٦٥.

(٤) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم ١٨٣٧، وقال: هذا حديث حسن غريب.



أخي المسلم:

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ - وقد حَفِظَهُ اللهُ رَحْمَةً بِنَا، وهو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ - يُصِرُّنَا فِي
جميع شئون حياتنا ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١)

فما من أمرٍ يفكرُ الإنسانُ فيه، أو يسعى إليه، إلا وللقرآن فيه هُدىً وتبصرةً.

إنه نورٌ. وهل تُدرِكُ الأشياءُ على حقيقتها، أو يهتدي الناسُ إليها إلا بنورٍ؟!

وهل يستوي مُتَخَبِّطٌ فِي الظُّلُمَاتِ وَمُسْتَضِيٌّ بِنُورِ اللَّهِ؟!

هذا يَنعُمُ بالحياة، ويمشي في الناس بنور ربِّه. وذلك يَتَعَثَّرُ في الظُّلُمَاتِ، لا يخرج منها.

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا

الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمَعٍ

مِّنَ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣)

(١) الإسراء: ٩.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) فاطر: ١٩ - ٢٢.

القرآن الكريم نورٌ يهدي به الله مَنْ يشاء من عباده، يهديهم به في كُلِّ شأنٍ من شئونها، ويُحقِّق لهم به حياةً طيبةً، يعمون فيها بنعمة الإيمان والحق والعدل والتقوى والبر.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ^١ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا
الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ^٢ وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ^٣ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^٤ إِلَّا إِلَى
اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ^٥ ﴾ (١)

فَلَنُحْيِي قُلُوبَنَا بِالْقُرْآنِ، وَلَنُنِيرَ بَيُوتَنَا بِهِ؛ فَإِنْ « الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ
الْقُرْآنِ كَالْيَتِيمِ الْخَرْبِ » (٢)

وفي البيتِ الخَرْبِ تأوي المَوَامُ والحشرات، وتكون الأوبئة والقاذورات.

وإذا كُنَّا نعملُ - دائماً - على رعاية بيوتنا، والمحافظة عليها، والقيام بنظافتها،
فإن أعظم ما يجب أن نحرص عليه، أن نعهد لها بذكر الله فيها، وتلاوة القرآن في
جنباتها، وإنارتها به؛ حماية لها من الشياطين.

ولنقتد ببيوت النبي ﷺ وفيها كانت تُتلى آياتُ الله والحكمة ﴿ وَأَذْكُرْنَا مَا
يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ^١ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ^٢ ﴾ (٣)

(١) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن، ما له من الأجر، رقم
٢٨٣٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الأحزاب: ٣٤.

ورسول الله ﷺ بَشَرٌ مِثْلُنَا. يُقْتَدَى بِهِ فِي يُسْرِ، وَبِلا حَرَجٍ تُعْرَفُ حَيَاتُهُ كُلُّهَا، وَلَا يَخْفَى مِنْهَا شَيْءٌ، مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فِي دَاخِلِ بَيْتِهِ، مِنْ: غَسْلِهِ، وَوَضُوئِهِ، وَنَوْمِهِ، وَمُعَاشَرَتِهِ لِأَزْوَاجِهِ، وَمَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ، وَمَا يَدُورُ فِي بَيْتِهِ مِنْ شُئُونٍ، وَمَا يُعَدُّ مِنْ طَعَامٍ، وَمَا يُوقَدُ مِنْ سَرَاجٍ. مَا يَلْبَسُهُ، وَمَا يَتَطَيَّبُ بِهِ. هَيْئَةُ فِرَاشِهِ، وَمُعَامَلَتُهُ لِأَزْوَاجِهِ، وَمَلَأْطَفَتُهُ لِأَهْلِ بَيْتِهِ. ذَكَرَهُ لِرَبِّهِ، وَقَوْفُهُ فِي الصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، مَا يَتْلُوهُ مِنْ قُرْآنٍ، وَمَا يَؤَظُّ عَلَيْهِ مِنْ سُنَنِ. أُمَمَاتُ الْمُؤْمِنِينَ يُحَدِّثْنَ عَنْ كُلِّ مَا يَقَعُ مِنْهُ فِي أَحْصَى شُئُونِهِ، دُونَ حَرَجٍ.

وَفِي خَارِجِ الْبَيْتِ حَيْثُ الْأَعْيُنُ تَرَصِّدُهُ، وَالْقُلُوبُ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ، وَالنَّفُوسُ دَائِمًا مَشْغُوفَةٌ لِرُؤْيَيْهِ. لَا يَكَادُ الْبَابُ يُفْتَحُ، وَلَا يَكَادُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخْرَجُ إِلَى النَّاسِ - فِي أَيِّ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِهِ - حَتَّى تَرَى مَنْ يُسَجِّلُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُ: حَرَكَاتِ يَدِهِ، وَقِسْمَاتِ وَجْهِهِ، وَهَيْئَةَ مَجْلِسِهِ، وَتَبَسُّمِهِ. يُسَجِّلُونَ مَا يَنْطِقُ بِهِ، وَمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ قِيَامٍ أَوْ قُعُودٍ، أَوْ انْتِقَالٍ، أَوْ مَأْكَلٍ أَوْ مَشْرَبٍ.

وَالصَّحَابَةُ - جَمِيعًا - حَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَرَوْهُ، وَأَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ بِقَدْرِ حِفَاوَتِهِمْ وَحَرَصِهِمْ عَلَى التَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ.

أَلَيْسَتْ هَذِهِ نِعْمَةٌ كَبِيرَى، وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ مُتَمَدِّدَةٌ وَبَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؟ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١)

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - وَنَحْنُ نَتْلُوهُ أَوْ نَسْتَمِعُ إِلَيْهِ - يُحَدِّثُنَا عَنْ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا يَقَعُ فِيهَا. فَلْنَسْتَمِعْ إِلَيْهِ، وَلْنَتَدَبَّرْ، وَلْنُحَسِّنِ الْقُدُورَ وَالْأَسُوءَ؛ فَإِنَّ الْفَلَاحَ فِي الْإِتْبَاعِ، وَالنَّجَاةَ فِي الْإِقْتِدَاءِ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢﴾

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) الأحزاب: ٢١.



أخي المسلم:

مع سورة (التحريم)؛ لنرى ما جرى في بيوت الرسول ﷺ، وما نزل من القرآن، وكيف استجابت النفوس، وخشعت القلوب، وآثرت ما عند الله.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ مُحَرَّمٌ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ① قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ② وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا ③ قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ④ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ⑤ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلْحَ الْمُؤْمِنِينَ ⑥ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ⑦ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَحِبُّنَّ عِبَادَاتٍ سَيَتَحَدَّثُ تَحِبَّتِ وَأَبْكَارًا ⑧ ﴿١﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمْ أَرَلْ حَرِيصًا أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ الْمَرَأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ حَتَّى حَجَّ عُمَرُ، وَحَاجَّتْ مَعَهُ، فَلَمَّا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، عَدَلَ عُمَرُ، وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّزَ، ثُمَّ أَتَانِي، فَسَكَبْتُ عَلَى

(١) التحريم: ٥ - ١.

يَدِيهِ فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَرْوَاحِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ ﷻ لَهُمَا: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ ؟ قَالَ عُمَرُ: وَاعْجَبَا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ - قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَرِهَ - وَاللَّهِ - مَا سَأَلَهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَكْتُمْهُ - قَالَ: هِيَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ. ثُمَّ أَخَذَ يَسُوقُ الْحَدِيثَ، قَالَ: كُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَعْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا نَعْلِبُهُمْ نِسَاءَهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ. قَالَ: وَكَانَ مَنَزِلِي فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ بِالْعَوَالِي، فَتَغَضَّبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي، فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَتُكِّرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: مَا تُتَكِّرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَاللَّهِ إِنْ أَرْوَاحَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعُنَّهُ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ. فَاثْطَلَقْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: أَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَخَسِرَ أَفْئَامُنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا؛ لِعُضَبِ رَسُولِهِ ﷺ ؟ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ. لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا، وَسَلِّبْنِي مَا بَدَا لَكَ، وَلَا يَغُرُّكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْسَمَ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكَ. يُرِيدُ عَائِشَةُ. قَالَ: وَكَانَ لِي جَارٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَكُنَّا نَتَنَاقَشُ التَّنَزُّولَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنْ غَسَّانُ تُنْعِلُ الْخَيْلَ ^(١) لَتَغْزُونَا، فَتَزِلَ صَاحِبِي، ثُمَّ أَتَانِي عِشَاءً، فَضْرَبَ بَابِي، ثُمَّ نَادَانِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قُلْتُ: مَاذَا ؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَطْوَلُ. طَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ. فَقُلْتُ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا كَائِنًا. حَتَّى إِذَا

(١) يَضْمُ النَّاءُ، مِنَ الْإِنْعَالِ. يُقَالُ: نَعَلْتُ، وَانْتَعَلْتُ: إِذَا لَبِسْتَ النِّعْلَ، وَانْعَلْتَ الْخَيْلَ: إِذَا لَبَسَتْهَا. وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ اسْتِعْدَادِهِمُ لِلْقِتَالِ مَعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

صَلَّيْتُ الصُّبْحَ، شَدَدْتُ عَلَى ثِيَابِي، ثُمَّ نَزَلْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَهِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: أَطْلَقُكَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: لَا أَدْرِي، هَا هُوَ ذَا مُعْتَزِلٌ فِي هَذِهِ الْمَشْرِبَةِ (١) فَأَتَيْتُ غُلَامًا لَهُ أَسْوَدَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنِ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ، فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ، فَأَنْطَلَقْتُ حَتَّى اتَّهَيْتُ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَجَلَسْتُ فَإِذَا عِنْدَهُ رَهْطٌ (٢) جُلُوسٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، ثُمَّ أَتَيْتُ الْغُلَامَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنِ لِعُمَرَ. فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ. فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا، فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي، فَقَالَ: ادْخُلْ؛ فَقَدْ أَذِنَ لَكَ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُتَكِيٌّ عَلَى رَمْلِ حَصِيرٍ (٣) قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْتُ: أَطْلَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاءَكَ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، وَقَالَ: لَا. فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ...» (٤)

أخي المسلم: هل تدبَّرتَ ما سمعت، ورأيتَ بعضَ ما كان في بيوتِ النبي ﷺ؟

هل رأيتَ حِلْمَهُ وَرَحْمَتَهُ، وَكَيْفَ كَانَ أَزْوَاجُهُ يُرَاجِعُنَّهُ، وَتَهَجَّرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ. سنسمع من عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا رَأَى فِي بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا تَمَّ مَعَ أَزْوَاجِهِ؛ لِيَتَأَسَّ الرِّجَالُ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ فِي مَعَامِلَةِ الْأَزْوَاجِ؛ وَتَرَى النِّسَاءَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُسْنِ الْاسْتِجَابَةِ وَالطَّاعَةِ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَمَا دَعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ.

(١) الْمَشْرِبَةُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُشْرَبُ مِنْهُ.

(٢) الرَّهْطُ مِنَ الرِّجَالِ مَا دُونَ الْعَشِيرَةِ. وَقِيلَ: إِلَى الْأَرْبَعِينَ، وَلَا تَكُونُ فِيهِمْ امْرَأَةٌ.

(٣) يُقَالُ: رَمَلَ الْحَصِيرَ إِذَا نَسَجَهُ. وَالْمُرَادُ ضَلُّوعُهُ الْمُتَدَاخِلَةُ بِمَنْزِلَةِ الْخَيْوُطِ فِي الثَّوْبِ الْمُنْسُوجِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْحَصِيرِ فِرَاشٌ وَلَا غَيْرُهُ، أَوْ كَانَ بِحَيْثُ لَا يَمْنَعُ تَأْثِيرَ الْحَصِيرِ.

(٤) مسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم ٢٧٠٧.



أخي المسلم:

الحديثُ عن المرأةِ في القرآن الكريم يُصاحِبُ الحديثَ عن الرجلِ في كثيرٍ من الآيات، وفيما فرَضَ الله وأوجبَ على عباده.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي^ط بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ^ط ﴾ (١)، ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي^ط وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً^ط وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) وقد ينفرد الرجلُ، وقد تنفرد المرأةُ في حديثٍ يخصُّه أو يخصُّها بما يتفقُ مع فطرتها أو فطرته.

وفي قصص القرآن للمرأة نصيبٌ، تُذكرُ المرأةُ كما يُذكرُ الرجلُ، ويأتي الحديثُ عبرةً لأولي الألباب، وهُدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون.

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ^ط لِأُولِي الْأَلْبَابِ^ط مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣)

والقصصُ غَيْبٌ من الغيب، ما كان الرسول ﷺ يعلمه، وما كان لدى أصحابه إذ وقع، وما كان لقومه عِلْمٌ به، ولا درايةٌ بحقيقته.

(١) آل عمران: من الآية ١٩٥.

(٢) النحل: ٩٧.

(٣) يوسف: ١١١.

وما كان يدور على ألسنة أهل الكتاب من قصصٍ لا يَسْلُمُ من تحريفٍ أو تبديلٍ.
فجاء القصصُ في القرآنِ بالحقِّ الذي لا مراءَ فيه، وبالبيانِ المنصِفِ للحقيقة،
وبالعبرة والموعظة والذكرى.

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١)

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيًا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ
قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢)

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ
يَمْكُرُونَ ﴾ ^(٣)

قلتُ: للمراة في قصصِ القرآن نصيبٌ، وفي الحديث عنها عِبرة وموعظةٌ
وذكرى للرجال والنساء جميعاً، في كُلِّ زمانٍ ومكان.

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٤)

فلنستمع إلى القرآن وهو يُحدِّثنا عن (مريم ابنة عمران) وما كانت عليه من
كريمِ الخصال، وما أثنى الله من فضلٍ، وما بشرها به من عطاءٍ.

لقد ذكرت مريمُ في القرآن من ولادتها، بل من حملِ أمِّها، وقد تَمَنَّتْ أَنْ

(١) هود: من الآية ١٢٠.

(٢) هود: ٤٩.

(٣) يوسف: ١٠٢.

(٤) البقرة: من الآية ٢٦٩.

تُرْزَقَ ذَكَرًا، وَنَذَرْتُ أَنْ تَجْعَلَ مَا فِي بَطْنِهَا مُحَرَّرًا.

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥٦ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٥٧ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَمْرِؤُا نِي لَكَ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٥٨ ﴾ (١)

لقد برأت امرأة عمران بنذرهما، ووقفت به، وقدمت مريم - حين ولدت - لما نذرت له.

وقبل الله منها، وأتم نعمته عليها، وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل (زكريا) كافلاً لها بعد تنافس (الأخبار) عليها، كل يريد كفالتها؛ لأنها بنت أمها، وقد طلبها زكريا عليه السلام؛ لأن حالتها عنده، لكن الأخبار أبوا إلا أن يقتربوا عليها، فألقوا أقلامهم أيهم يكفل مريم، فكان من توفيق الله ورعايته أن جعل (زكريا) كافلاً لها، بعد أن اختصموا وألقوا سهامهم للقرعة، كل يريد لها في كنفه ورعايته.

وما كان الرسول ﷺ حاضراً وهم يلقون أقلامهم، وما كان لديهم وهم يتنازعون فيمن يكفلها منهم، ولكنه وحي الله لنبيه، يوحى إليه بغيه.

(١) آل عمران: ٣٥ - ٣٧.

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ ﴾ (١)

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمُ اللَّهُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ ﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾ (٢)

أخي المسلم: في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون. وعبرتنا فيما سمعنا: أنَّ عطاء الله وفضله يخصُّ به مَنْ يشاء من عباده، وأنه - جَلَّ شَأْنُهُ - يرزق مَنْ يشاء بغير حساب.

كان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم المحراب وجدَ عندها رزقاً، وكان يعجبُ من فيضِ العطاء لها، والبرِّ بها، فيسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكَ هَذَا ۖ﴾ ؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾

اعترافٌ بنعمة الله ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٣)

(١) الجن: ٢٦، ٢٧.

(٢) آل عمران: ٤٤ - ٤٧.

(٣) الحديد: من الآية ٢١.



أخي المسلم:

في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون. وللمرأة في قصص القرآن نصيبٌ.

وفي الحديث الماضي كُنَّا مع نصوص القرآن وهو يُحدِّثنا عن مريم ابنة عمران التي قال الله عنها: ﴿وَمَرْيَمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ خَالِدٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهَا فِي سَائِرِ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

لقد لآقت في حياتها ما يلقاه المؤمن من بلاء، يتعرض له من سفاهة السفهاء، وكيد الجرمين، لكن الله وَجَّهَ يَدْفَعُ عن الذين آمنوا. وهذا وعدٌ منه لا يتخلف.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٢)

والله وَجَّهَ يُدْكِرنا بقصة مريم في كتابه، ويأمرُ نبيَّهِ ﷺ أن يذكرها؛ ليعرف الناس فضل ربهم ورحمته بخلقه، وقدرته وهو يخلق ما يشاء، ويرزق من يشاء، ويؤتي فضله من يشاء.

وما على الإنسان إلا أن يُخْلِصَ الْقَصْدَ لربه، ويُحَسِّنَ التَّوَجُّهَ إليه، ويرجوه ولا يرجو سواه، ويتوكَّلَ عليه، ويتوب إليه، ويرضى بقضائه رضى العارف بفضله، المؤمن بحكمته، المحسن في عمله، المتَّبِعَ لشرِّعه، المُصَدِّق بكلماته وكتبه وملائكته وجميع رُسُلِهِ.

(١) التحريم: ١٢.

(٢) الحج: ٣٨.

ما على الإنسان إلا أن يفرّ إلى الله في كل عمل، وأن يؤثّر رضاه في كل ما يعرض له، نيةً، وقولاً، وعملاً.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝ ﴾ (١)

فلنستمع إلى ما قصّه القرآن علينا في أمرٍ مرّيم ابنة عمران، أمّ عيسى عليه السلام؛ لناخذ العبرة، ونظفر بالموعظة والذكرى، ونقف على حقائق الأمور، فنستمسك بالحق. والكلّ مسئول بين يدي الله عمّا جاء به المرسلون.

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝ ﴾ (٢)

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ (٣)

هذا حديث القرآن عن مرّيم ابنة عمران في حملها، وولادتها، وصدقها، وعفافها، وطهرها، وقنوتها.

فلنستمع إليه، ولتقر المرأة المسلمة ما كانت عليه المؤمنات القانتات الصادقات.

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) الأعراف: ٦، ٧.

(٣) الحجر: ٩٢، ٩٣.

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿٢٣﴾ فَتَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَبَى إِلَيْكَ يُجْذِعُ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴿٢٦﴾ فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٧﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴿٢٨﴾ قَالُوا يَمْرُؤُكُمْ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٩﴾ يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٣٠﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴿٣١﴾ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي إِلِكُتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٣﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٥﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴿١﴾

قدرة الإله القادر الذي يقول للشيء: كُنْ، فيكون. وكل شيء عليه هين.

عذراء لم يمسسها بشر، كيف تواجه من حولها بحملها ؟ وماذا تقول ؟
فلتسكت هي، ولتتكلم من لا يُعهد أن يتكلم مثله ! وليقل ما ألقى عليه، وما أمر به.
ولم يكن قوله دفاعاً عن أمه، وإنما كان تقريراً عما هو عليه، وما أعدّه الله له.
ويأتي قوله متضمناً لهذا وذاك، فإن الحديث من مثله له دلالة في تبرئة أمه،
وتبليغ ما أذن الله به.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ^(١)

تكرم أي تكريم لمن يختاره الله ويرتضيه ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ
رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ^(٢)

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ﴿ هَكَذَا يُعَلِّنُ عِيسَى
الْعَلِيَّةُ عُبُودِيَّتَهُ لِلَّهِ، وَيُعَلِّنُ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ نَبِيًّا، لَا وَلَدًا وَلَا شَرِيكًا.

وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، كما أوصاه بالبرِّ بوالدته.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

هكذا يُعَلِّنُ عِيسَى الْعَلِيَّةُ، وهكذا كانت أمه.

(١) مريم: ٣٠.

(٢) الحج: ٧٥.



أخي المسلم:

في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

وللمرأة في قصص القرآن نصيب. تعلو بفضائلها، وتسمو بأخلاقها، وتنعم بفضل ربها، فتضرب مثلاً للذين آمنوا.

وكم لنساء فضليات من مواقف تُذكر، وكم لهن بالإيمان من حياة.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢)

من قبل رأينا ما كانت عليه مريم ابنة عمران، أم عيسى عليه السلام وما تلا القرآن في شأها من آيات يتعبد بها، ويتقرب إلى الله بتلاوتها.

وها نحن نمضي معاً لنقرأ عن أم موسى عليها السلام، ونتدبر ما ذكره القرآن في شأها، وما قابلت من المصاعب والمشقات، وما منحها الله من فضل، وما أمدّها به من وحي.

لقد وُلد موسى عليه السلام في وقت كان الوعيد فيه مُسلطاً على كل مولود ذكرٍ يُولد من بني إسرائيل.

(١) يوسف: ١١١.

(٢) المائدة: من الآية ٥٤.

هكذا فعل فرعون، وهكذا سوَّلت له بطائنه، وأهل الضلال من حوله.

كُلُّ مولودٍ ذَكَرٍ يُؤَلِّدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُذْبَحُ.

(لماذا؟)؛ لأنه رأى رؤيا فُسِّرَتْ له بأن مولوداً يُؤَلِّدُ في بني إسرائيل يذهب ملكه على يديه، ويكون هلاكه بسببه. فأمر أن يُقْتَلَ كُلُّ مولودٍ ذَكَرٍ من بني إسرائيل، وأن تُشْرَكَ الأُنثى على قَيْدِ الحِياة؛ لخدمته.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١)

في هذا الجو الخانق، والوعيد المسلط على كُلِّ أُمٍّ - بأنَّ ما في بطنها مُعَرَّضٌ للذَّبْحِ إنَّ كان ذَكَراً - في هذا الوقت وَلَدَ موسى عليه السلام.

وَلَدَ في عامٍ يُذْبَحُ فيه كُلُّ مولودٍ ذَكَرٍ من بني إسرائيل. وأُمُّه تعرف ذلك، وتعرف ما يتعرَّضُ له وَلِيدُها ساعة وجوده.

فماذا تفعل الأُمُّ؟

وكيف تحمي رضيعها؟

وماذا يكون حالها وابنتها يُذْبَحُ أمام عينيها، أو يُؤْخَذُ من بين يديها، لا لِيُكْرَمَ، بل لِيُقْتَلَ؟

وَهُوَ إِنْ أُخِذَ لِلْإِكْرَامِ، لم تطب نفسها؛ لأنَّ سعادتها أن تقومَ (هي) بإكرامه ورعايته. فما بَالُكَ وهو يُؤْخَذُ لِيُذْبَحَ؟

(١) القصص: ٤.

ماذا تفعل أم موسى في هذا الأمر الذي لا طاقة لها به ؟

لا بُدَّ من قوَّة. وهي لا تملك هذه القوَّة، وليس من حولها من يدفع الفساد أو يردِّد، وقومها مُسْتَضَعُونَ مُسْتَذَلُّون.

إنها تلجأ إلى الله؛ تنشدُ فضله، وترجو رحمته.

وهذا فضل الله عليها، وعونه لها.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا

تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١)

فاستجابت لأمر ربِّها، وجعلت وليدها في صندوق، وألقته في اليمِّ !

ومضى اليمُّ به إلى أن ألقاه بالساحل. (عند من ؟)

عند من بغى وتجرَّ. عند عدوِّ الله وعدوِّه.

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ

فَلْيَلِغِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ ۖ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ

عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٢)

إن من حفظه الله لا يمكن أن يضيعه الناس. ومن أحبه الله ألقى في قلوب الناس حبه.

﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾

(١) القصص: ٧.

(٢) طه: ٣٨، ٣٩.

أَلْقَتْ أُمُّ مُوسَى بِرَضِيعِهَا كَمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ، لَكِنَّ قَلْبَهَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَلَمْ يُشْغَلْ بِغَيْرِهِ، حَتَّى كَادَتْ - لِفَرْطِ وَجْدِهَا - أَنْ تُحَدِّثَ بِأَمْرِهَا، لَكِنَّ اللَّهَ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، وَجَعَلَهَا تَوْقِنَ بَوْعِدِهِ، فَأَمَرَتْ أُخْتَهُ أَنْ تَتَّبِعَ أثرَهُ، وَتَعْلَمَ خَبْرَهُ، وَتَنْظُرَ مَا يُفْعَلُ بِهِ.

وَفَعَلَتِ الْأُخْتُ مَا أَمَرَتْ بِهِ، وَأَبْصَرَتْ أَخَاهَا وَقَدْ التَّقَطَّهَ آلُ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مُسْتَخْفِيَةٌ عَنْهُمْ، لَمْ تُظْهِرْ نَفْسَهَا إِلَّا حِينَ رَأَتْهُمْ يَبْحَثُونَ لَهُ عَنْ مُرْضِعَةٍ، فَدَلَّتْهُمْ عَلَى مُرْضِعَةٍ تُكْفِلُهُ وَتُرْعَاهُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُرْضِعَةُ هِيَ (الْأُمُّ) الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا، فَفَرَّتْ عَيْنَهَا. وَعَادَ إِلَيْهَا بِرِزْقِ رَبِّهَا، تُرْضِعُهُ وَتَأْخُذُ أَجْرًا! ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾^(١) فَرَجَعْتُكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ^(٢) ﴿حَفِظَ اللَّهُ رَضِيعَهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ، وَجَعَلَهُ لَا يَقْبَلُ ثَدْيًا إِلَّا ثَدْيَ أُمِّهِ، وَسَخَّرَ آلَ فِرْعَوْنَ لخدمته وَحمايته! ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِعًا^(٣) إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِهِ فَبُصِّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) ﴿٢﴾

(١) طه: من الآية ٤٠.

(٢) القصص: ٩ - ١٣.



أخي المسلم:

في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون.
وللمرأة في قصص القرآن نصيبٌ. من النساء من ضربه الله مثلاً للذين آمنوا،
ومنهن من سمّت بخصالها، وعَلّت بفضائلها، ونِعِمّت بفضل ربّها.
وبالإيمان تسمو النفوس، وتثبت أمام الشدائد والمحن بتثبيت الله لها.
وكم للإيمان من نتائج وآثار، في الدنيا والآخرة..

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَمُ
الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ يَوْمَ يَقُولُ
الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ
فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ
﴿١٢١﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ
وَعَرَنْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّيْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٢٢﴾﴾ (١)

بالإيمان تعزّ النفوس، وتفوز برضوان الله ورحمته. وللإيمان آثاره ونتائجه في الحياة
الدنيا وفي الآخرة. والقرآن الكريم يُحدّثنا عن رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات؛ لتحسن
القدوة، وتحقيق الأسوة في بشرٍ من الناس جاءوا إلى الحياة الدنيا، فكان لهم بالإيمان ثباتٌ

(١) الحديد: ١٢ - ١٤.

أمام زهرتها، وعِفَّةً عن التطلع إلى لَهْوِها وزينتها، بل وصَبْرٌ أمام بأسائها وضرائها.

ومن النساء مَنْ توفرت لها جميع أسباب المتع والزينة، لكنها - بإيمانها - أبصرت العواقب، ولم تُفْتَن بِالرَّغَائِبِ، فَكَفَّتْ بَصَرَهَا عَنِ الزَّائِلِ الْفَاني، وأبصرت الباقيات الصالحات، فعاشت في دُنْيَها تَوْثِرُ رِضى رَبِّها، وترجو رحمته، وتشد الحق، وتؤيِّدُ أَهْلَهُ، وتُحَقِّقُ الْباطِلَ، وتُبْغِضُ أَهْلَهُ، وتحمل في سبيل ذلك من المصاعب ما ترجو به رحمة رَبِّها.

كم من النساء لهنَّ مواقف يتطلَّعُ إلى مثلِها عظماء الرجال، ويذكر بها أولو الألباب.

هذه امرأة فرعون تُذَكَّرُ في القرآن الكريم في موضعين: في سورة (القصص)، وفي سورة (التحریم).

في سورة القصص: حين أَلْقَتْ أُمُّ مُوسَى بَابِنَهَا فِي الْيَمِّ، كما أوحى الله إليها. أَلْقَتْهُ حين خَافَتْ عَلَيْهِ، وَأَلْقَاهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ، وَالتَّقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ. عندئذٍ كان لامرأة فرعون موقفٌ أعدَّها الله له.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١)

وفي سورة التحريم ضربها الله مثلاً للذين آمنوا؛ لثباتها على الحق وإيثارها ما عند الله.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ

بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَيُخَيَّرُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيُخَيَّرُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

الإيمانُ به تُعَزُّ النفوسُ وبه تتراحم، وبه يتمُّ الثباتُ في السراءِ والضراءِ، فلا الرغائبُ تصرفُ النفوسَ عن النظرِ إلى العواقبِ، ولا المصائبُ تُفَعِّدُها عن السعيِ إلى مرضاتِ ربِّها والرضى بقضائه.

إنَّ جاءتِ السراءُ قُوبِلَتْ بالشكرِ، وإنَّ كانتِ الضراءُ عُولِجَتْ بالصبرِ. والإيمانُ يُحَقِّقُ الرضا عن الله في جميع الأحوال.

أخي المسلم: في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وامرأةُ فرعون - وقد ضربها الله مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا - قد عَلَتْ بِإِيمَانِهَا، ولم تخضع للمؤثرات من حولها، وتَبَرَّأت من كُلِّ شيءٍ يَخَالِفُ أَمْرَ رَبِّهَا. تَبَرَّأت من الظُّلْمِ وأهلِهِ، كما تَبَرَّأت من فرعونَ وعَمَلِهِ، وَطَلَبَتْ من ربِّها بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾

وهو دعاءُ يُنْبِئُ عن التجردِ لله والإخلاصِ له، وَحُسْنِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، كما يُنْبِئُ عن تعلقها بما عند الله، وإيمانها به.

لَمْ تَكُنْ (إِمْعَنَةً) تُطَاوِعُ النَّاسَ فِيمَا يَعْمَلُونَ، وَتُقَلِّدُهُمْ دُونَ نَظَرٍ وَتَدَبُّرٍ.

بل تَرَى أُمُورَهَا بِمِيزَانِ رَبِّهَا: فَمَا كَانَ فِيهِ رِضَى اللَّهِ، سَعَتْ إِلَيْهِ، وَقَامَتْ بِهِ، وَمَا كَانَ مُخَالِفًا لِأَمْرِهِ، بَعُدَتْ عَنْهُ، وَلَمْ تَعْبَأْ بِهِ.

عاشت في مجتمع استخفه طاغية فأطاعه، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ (١)

عاشت في حِصْمٍ هذا الكُفْر الطاغوي، فلم تخضع لمؤثراته، بل رفعت رأسها إلى السماء، وقالت: ﴿ رَبِّ آيِن لِي عِنْدَكَ بَيِّنًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

وهكذا يجب أن تكون المرأة.

مسئولة عن ذاتها، مُحاسبَةٌ على عملها.

كما يجب أن يكون الرجل.

عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَا تَكُونُوا إِمْعَةً (٢)، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا. وَلَكِنْ وَطِّنُوا (٣) أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا » (٤)

(١) الزخرف: ٥٤.

(٢) الإمعة: هو الذي يتابع كل ناعق، ويقول لكل أحد: أنا معك؛ لأنه لا رأي له يرجع إليه. ومعناه:

المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا رؤية ولا تحصيل برهان

(٣) توطين النفس تمهيداً. يقال: وطّن نفسه على الأمر ولأمر، هياها لفعله وحملها عليه

(٤) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم ١٩٣٠، وقال: هذا حديث حسن غريب.



أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأُولِي الْأَلْبَابِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.
وللمرأة في قصص القرآن نصيبٌ. تُذَكَّرُ مؤمنة وكافرة، وتُضْرَبُ مَثَلًا للكافرين
والمؤمنين.

وقد استمعنا للقرآن من قبل وهي تُضْرَبُ مَثَلًا للذين آمنوا في ثباتها، وصِدْقِها،
وعِفَّتِها، وإيثَارها ما عند الله.

كما تُضْرَبُ مَثَلًا للذين كفروا حين تتوفَّرُ لها القدوةُ الحسنةُ، والبيئةُ الصالحةُ،
وتُبَلِّغُ بدعوة الله على ألسنة رُسُلِهِ، فتأبى وتُعرض، وتظلم وتكفر، فيكون جزاؤها أن
تَهْلِكَ مع المالكين.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ
ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (١)

وكانت خيانتهم في (الدِّين)؛ إذ لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في
الرسالة ﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (٢)
لا مُجَامَلَةَ ولا مُحَابَاةَ.

(١) التحريم: ١٠.

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا تَجْزِ بِهِ ۖ ﴾ ^(١)

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿ ﴾ ^(٢)

والله جلّ وعلا ليس بينه وبين أحدٍ نَسَبٌ إلا الطاعة، فالانتساب إلى النبي أو الرسول إنما هو انتسابُ إيمانٍ وعملٍ صالح.

وها هو النبي ﷺ يقول لا يبتدئ: « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مَا شِئْتُ مِنْ مَالِي؛ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ^(٣)

وهذا ابنُ نوحٍ عليه السلام لم ينفعه أباه، بل أبعد الابنُ بكفره ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا

الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ ﴾ ^(٤)

و"أبو هُب" لم تنفعه قرابته من نبي الرحمة ﷺ، بل ذهب به كفره إلى نارٍ ذاتٍ لهَبٍ، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۖ ﴾ ^(٥)

العقيدة هي الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان. وعليها تقوم أخوة الإيمان.

(١) النساء: من الآية ١٢٣.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

(٣) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٥٤٨.

(٤) هود: من الآية ٤٣.

(٥) المسد: ١ - ٥.

ومن يوم أن نادى رسول الله ﷺ في مكة بهذا النداء (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له)، ودعا الناس إلى (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) قرب نداء العقيدة بين المؤمنين، دون نظراً إلى أوطانهم أو ألوانهم أو قبائلهم.

قربت العقيدة بين بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وأبي بكر القرشي، وجمعتهم على أخوة الإيمان متوآدين متحابين.

لا يُؤَدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.

إن ميزان التقبل عند الله هو (التقوى).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٤) تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (٥) ﴿

وعندما يضرب الله الأمثال للناس في القرآن إنما يريد لهم أن يستبصروا، وأن يعتبروا، وأن يعرفوا سنن الله في خلقه.

فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عباد الله صالحين، فلم يُغنيا

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) المؤمنون: ١٠١ - ١٠٤.

عنهما من الله شيئاً حين كفراً وجهداً، وكذباً رُسُلَ الله.

والإيمان - وحده - هو الذي يُلْحَقُ الْخَلْفَ بِالسَّلَفِ، والأبناءُ بالآباءِ، ويجمعُ الأهلَ في رحمة الله ورضوانه ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۖ ۝١١٠ ﴾ (١)

الله - جلَّ وَعَلَا - يضربُ الأمثالَ للناسِ؛ لكي يتدبرُوا، ويتبعُوا سُبُلَ الناجينِ المُفلحين من عباده، ويجتنبُوا سُبُلَ المالكين. ومع البيانِ تنقطعُ الحُجَّةُ والمُعذرة.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١١ ﴾ (٢)

الإيمان هو التَّسَبُّبُ الذي يعلو به الإنسانُ ولا يهبط، وبه يَرْفَعُ اللهُ أَقْوَامًا وَيَضَعُ آخَرِينَ. وإذا كان القرآن الكريم قد بيَّنَ لنا ما وَقَعَ من امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ من كُفْرٍ وتكذيبٍ، فلنحذر نحنُ ما يُوَدِّي إِلَيْهِ من شِرْكٍ ظَاهِرٍ وَخَفِيِّ؛ فَإِنَّا - جميعاً - سنلقى الله، ونُحَاسَبُ بين يديه ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ ۝١١٢ ﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ ۝١١٣﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۖ ۝١١٤﴾ (٣)

(١) الطور: ٢١.

(٢) النساء: ١١٥.

(٣) طه: ٧٤ - ٧٦.



أخي المسلم:

في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون. وللمرأة في قصص القرآن نصيب. تُضْرَبُ مَثَلًا للكافرين، وتُضْرَبُ مَثَلًا للمؤمنين.

ففي سورة (التحریم) نسمعُ قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (١)

والمؤمن حين يتدبر هذا المثل يدرك أن نسيته الذي يعلو به (إيمانه وعمله)، فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدَيْن صالحَيْن، رسولَيْن كريمَيْن، فلم يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وقيل: ادخلا النار مع الدَّاخِلِينَ.

ولقد أدرك صحابة رسول الله ﷺ ذلك، فلم يُشغَلُوا بغير طاعة الله وتقواه، ولم يُشَرَّفُوا بغير الإخلاص له، وحُسن التوجه إليه.

أرسل عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ عَلَى حَرْبِ الْعِرَاقِ، وَأَوْصَاهُ قَائِلًا:

« يا سعد بني وَهَيْب، لَا يُعْرَتُكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ خَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَعَلَيْكَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ

(١) التحريم: ١٠.

وبين أحد نسبٍ إلا طاعته، شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ - منذ بُعث إلى أن فارقنا - فالزمه؛ فإنه الأمر. هذه عظمي إياك، إن تركتها ورغبت عنها، حبط عملك، وكنت من الخاسرين» (١)

إن خطيئة الإنسان تُحيط به مهما علا نسبه، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته. ولذلك عندما جاءت الملائكة إلى نبي الله لوط عليه السلام؛ لينفذوا ما أمروا به لم تسلم امرأته من العذاب، بل أصابها ما أصاب قومها من دمارٍ وهلاك.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ﴾ ١٦٨
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۖ﴾ ١٦٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى زُكْنٍ شَدِيدٍ ۖ﴾ (٢)

عندئذ كشف الملائكة عن حقيقتهم، وأظهروا ما جاءوا لأجله، وأنهم جاءوا لتدمير أهل الشر والفساد، ومنهم امرأة لوط.

ولم ينج من أهله إلا من كان مؤمناً صالحاً ﴿قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۖ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۖ﴾ ١٧٠ فَلَمَّا جَاءَ

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٢، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٧ هـ.

(٢) هود: ٧٨ - ٨٠.

أَمَرْنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨١﴾ مُسَوَّمَةٌ
عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٢﴾ (١)

هَلَكُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَدُمُّوا بِظُلْمِهِمْ.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٨٢) (٢)

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا
كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٨٣) قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ
إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَّضَافَ
بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ
الْغَيْرِينَ ﴿٨٥﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٨٧﴾ (٣)

أخي المسلم: هكذا يُعلمنا القرآن أن نَجَاةَ الإنسان في إيمانه واستقامته، وهلاكه
في ظلمه وفسقه، وأن سنن الله في خلقه لا تبدل ولا تتحول.

(١) هود: ٨١ - ٨٣.

(٢) هود: ١٠٢.

(٣) العنكبوت: ٣١ - ٣٥.



أخي المسلم:

في سورة (يُوسُفَ) يَقُصُّ علينا القرآن الكريم ما وقع من امرأة العزيز، وما أصاب يوسف عليه السلام من كَيْدٍ.

وعندما نتدبر الآيات التي وردَ فيها ذِكرُ امرأة العزيز، نقفُ على أمورٍ تكونُ لنا مناراتٍ في حياتنا، ومعالمٍ في طريقنا:

يُوسُفُ عليه السلام - وهو الكريمُ ابنُ الكريمِ بنُ الكريمِ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - لقيَ من ضروبِ المحنِ والشدائدِ - ما قصَّ القرآن الكريم علينا من كَيْدِ إخوته، وتأمر النسوةِ عليه في بيت امرأة العزيز، وفي السجن كذلك.

أذىً من القريب والبعيد. !!

تعلّقت به امرأة العزيز، وراودته عن نفسه بشئٍ طرائق الفتنة والإغراء... وزوجها لا يخلو من التَّبِعة، ولا يُعْفَى من المسؤولية؛ فهو الذي هيأ الفتنة لزوجها، ولم يكن حاسماً فيما بدا من أمرها، وظَهَرَ من كيدها.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۚ

وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

وليس كل الناس يوسف عليه السلام في عفته وصدقته، وإخلاصه لربه.

ومن البلاءة أن نطن العصمة في أحد؛ فالمعصوم من عصمة الله.

فبعد الرجال عن النساء، وتجنب مخالطتهن يعين على عفة المرأة، ويصونها، كما يعين على طهر المجتمع وبعده عن الرذيلة.

فهذه امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه.

إنه قريب منها، وقد فتنت به. إنه في بيتها، وليس بعيداً عنها ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ

فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۚ وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾

لقد حفظ يوسف عليه السلام حرمة البيت، ولم يخن صاحبه، واستعصم ولجأ إلى ربه أن يصرف عنه الكيد ﴿قَالَ رَبِّ آلَسْجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا

تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٢﴾﴾

المراة تفتن بالرجل، كما يفتن الرجل بالمراة. ولقد حرم الإسلام الخلوة بين الرجل والمرأة؛ حماية له ولها من الفتنة، والوقوع فيما يَغضبُ الله.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) يوسف: ٢١ - ٢٣.

(٢) يوسف: ٣٣.

« إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمَوُ (١) ؟ قَالَ: الْحَمَوُ الْمَوْتُ » (٢)

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » (٣)

وروى أبو داود والترمذي، عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: « كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ وَمِمْوْنَةُ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ - وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: احْتَجَبَا مِنْهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَعَمَيَاوَانِ أَتَمَّا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ!؟ » (٤)

أخي المسلم: إن المرأة أُمٌّ. والأُمُّ يجبُ أن تتوفّر لها جميع أسباب الرعاية والطهر، والحفاظة على الأخلاق والفضائل؛ حتى ينشأ بها جيلٌ يعرف الواجبات، ويحفظ الحرمات. جيلٌ يردُّ عن أُمَّتِنَا الإسلامية كيد أعدائها، بانتصار الفضائل في نفسه، وإقامة حدود الله في أرضه، وإعلاء كلمة الله في جميع أمره.

وأخطر مراحل الإعداد ترعاها الأُمُّ، وتقوم عليها؛ فإن صَلَحَتْ صَلَحَتْ بها الأجيال، وإن فسدت، أساءت ودمّرت.

إنها مدرسة، والمدرسة بلا نظام وحسن تدبير وتوجيه تُسيء إلى المجتمع الذي

(١) الحمو: قريب الزوج، كأخيه، وابن أخيه، وابن عمه.

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، رقم ٤٨٣١.

(٣) البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، رقم ٤٨٣٢.

(٤) سبق تخريجه.

تكون فيه.

المدرسة بلا صفات ومقومات تصبح مأوى للعبث والضياع.

والشرع الحكيم قد أعطى المرأة من العناية ما تكون جديرة بالأمومة في أمة ذات رسالة، وجعل حقها أعلى الحقوق بعد حق الله وعجل، وجعل وصلها سبباً في رضا ورحمته « مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ ».

ومن أعظم الرعاية لحقها أن تُصان من عبث العابثين، وهوى المفسدين.

ومن التكريم للشيء أن تضعه في الموضع اللائق به.

ومن التكريم للمرأة ألا توصف بالرجولة، أو التشبه بها، وألا يتعرض أعز ما تملكه - من شرف وعفة وصون - للمهانة والابتذال.

ومراعاة الآداب والفضائل التي دعا الإسلام إليها وأمر بها، هي السبيل لحماية أمتنا من دمار الأهواء، وفساد الشهوات.

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١)



أخي المسلم:

في سورة (يوسف) يَقْصُّ علينا القرآن الكريم ما وَقَعَ من امرأة العزيز، وما أصاب يوسف عليه السلام من كيد.

وفي الحديث الماضي رأينا كيف فُتِنَت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام؛ لِقُرْبِهَا مِنْهُ، إِذْ هُوَ فِي بَيْتِهَا. وكيف عَصَمَ اللَّهُ يوسفَ من الوقوع في الكيد حين استعصم ولجأ إلى رَبِّهِ يدعوه أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ.

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۖ ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴿^(١)

والنسوة إِذَا كِدْنَ فَلَا تَسْلَ عَنْ كَيْدِهِنَّ؛ إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ.

لقد شاع الأمر بين الناس، وتحدثت النسوة به، وعرف الناس - من أوَّل الأمر - براءة يوسف عليه السلام. عرف ذلك العزيز نفسه، كما عرف النسوة اللاتي تحدثن في الأمر، ولكن الكيد ألقى بيوسف في السجن وهو برئ !!

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿^(٢)

(١) يوسف: ٣٣، ٣٤.

(٢) يوسف: ٣٥.

بعد الدلائل القاطعة على براءته ﴿ فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ بِضَعِ سِنِينَ ﴾ ! ^(١)

كيدٌ أيُّ كيد. ولكنَّ المحنَّ والشدائد تأتي على المعدنِ الأصيل فلا تزيده إلا صلابةً وقوةً ونضارةً.

والحقُّ مهما حاول الناسُ التَّنَكُّرَ له، لا بُدَّ أن يغلب وينتصر.

﴿ بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ^(٢)

والله ﷻ يتلى عبادَه الصالحين، وإذا أحبَّ الله عبده ابتلاه.

يبتليهم ولا يُضَيِّعهم، وينصرهم ولا يُخزيهم.

إنَّ رؤيا يراها الملكُ تكونُ سبباً في الدلالة على يوسف، وإظهار أمره، بل إظهار الحقِّ الذي حاول الكيدُ إخفائه.

عرف الملكُ تعبيرَ رؤياه - بعد أن عُرِضَتْ على يوسف - فطلبَ إحضارَه؛ ليسمع منه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ ^ط فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ^ع إِنَّ رَبِّي بِكِدِّهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ^{٥١} قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ ^ع قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ^ع قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّسْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^{٥٢} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ ^{٥٣} وَمَا أَبْرَأُ

(١) يوسف: من الآية ٤٢.

(٢) الأنبياء: من الآية ١٨.

نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

المراة نفسها هي التي تعترف وتقول: ﴿الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ

نَفْسِيهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

الحقُّ غالبٌ منتصرٌ، ولو بعد حين.

والمراة إذا كادت أعمأها الكيد.

إنَّ عاطفتها قويةٌ غالبةٌ، إنَّ مالت إلى الشرِّ أساءت وأفسدت، وإن سلكت طريق الخير أحسنت وتفوقت.

لقد رأيناها في كيدِها ماذا صنعت، ورأيناها في إنابتها كيف أجادت وأحسنت.

﴿الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِيهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

ومن قبل عندما أعمأها، وتحدثت النسوة عن فتنها بفتأها، وأحضرته، ورأينه فأكبرته، وقطعن أيديهنَّ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِيهِ

فَأَسْتَعْصِمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ (٢)

هذا حوّلها حين كادت، وذلك قولها حين أنابت. وبين الكيد والإنابة نفسٌ تغيرت من حالٍ إلى حالٍ، صمدٌ فيها الحقُّ وصابرٌ، فانطوى أمامه ظلامُ الباطل بكيده وتدييره.

وخرج يوسفُ - من بعدُ - ليكونَ أميناً على خزائن الأرض.

(١) يوسف: ٥٠-٥٣.

(٢) يوسف: ٣٢.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِمَاءٍ أُسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ ﴾ (١)

هكذا يعلمنا القرآن رجالاً ونساءً، ويصّرنا ويرينا عاقبة التقوى، ونتائج الاستقامة. هكذا في قصصه - وفي جميع آياته - يُنير لنا الطريق في كل شيء، ويرينا ما يرتفع به الإنسان وما به ينخفض، ولِمَنْ تكون العاقبة.

هكذا يعلمنا أن العلم الموصول بالله يرفع أهله، أَلَمْ يَقُلْ يوسُفُ في سجنه - وهو يدعو إلى ربّه -: ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۙ ﴾ ؟ (٢) أَلَمْ يَطْلُبِ الْمَلِكُ عِلْمَهُ؛ لتأويل رؤياه، ودعاه واستخلصه لنفسه، وجعله على خزائن الأرض ؟

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ (٣)

(١) يوسف: ٥٤ - ٥٧.

(٢) يوسف: من الآية ٣٧.

(٣) الطلاق: ٢، ٣.



أخي المسلم:

في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون. وللمرأة في قصص القرآن نصيبٌ.

ومن قبل وقفنا عند كثيرٍ من قصص القرآن، وَرَجَوْنَا أَنْ يَرْزُقَنَا اللَّهُ الْعِبْرَةَ والخشيةَ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا إِلَى مَا يُرْضِيهِ عَنَّا.

ونقفُ اليومَ في قصةِ موسى في سورة (القصص)؛ لنرى حالَ المرأتَيْنِ اللَّتَيْنِ وجدَهما موسى عندما وَرَدَ ماءَ مَدين.

خرج موسى عليه السلام مُهاجِراً عندما تَأَمَّرَ الْمَلَأُ عَلَى قَتْلِهِ، وَأُخْبِرَ مِنْ قَبْلِ رَجُلٍ مؤمنٍ، فاستمع إليه، واستجاب لنُصَحِهِ.

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنُ الْمَلَأِ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ﴿١﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ﴿٣﴾ (١)

خرج موسى عليه السلام مُهاجِراً خائِفاً يترقَّبُ؛ قاصِداً بلادَ (مَدْيَنَ)، وقضى في سِيره ليالي وأياماً.

(١) القصص: ٢٠ - ٢٢.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِبِ اسْتَنْجِرُهُ إِنَّا خَيْرٌ مِمَّنِ اسْتَنْجَرَتِ الْقَوَى الْأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشْقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ ﴾ (١)

من حديث القرآن نستطيع أن نعرف حال المراتين:

الناس تراحموا على مورد الماء، والمرأتان تفصلان أغنامهما؛ حتى لا تختلط بأغنام غيرهما، وينتظران حتى يذهب هذا الحشد، وينصرف الجمع، ويخلصان للسقيا في غير تبذل أو اختلاط.

أدب رفيع تتأدب به المرأة إذا اضطرت إلى العمل ودعتها الحاجة إليه.

ورأى موسى عليه السلام حالهما، وسألهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ؟ فأجابا بما أفاد أهما لا يُريدان مزاحمة الرجال، وقد جاءا للستيا اضطراباً؛ لأن أباهما شيخ كبير.

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ ﴾

ولم يتوان موسى عليه السلام عن النجدة ومعاونة من يحتاج إلى المعاونة في صدق وبر، وجد واستقامة ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

عادت الفتاتان - على غير عادتهما - إلى أبيهما الشيخ مبكرتين، فسألتهما فأخبرتا بما صنع القوي الأمين، فأرسل في طلبه.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحَدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ مشية العفيفة الطاهرة ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾

كلمات محدودة واضحة تُنبئ عن شرف القصد، واستقامة السعي.

فأجاب موسى دعوة الشيخ، وأنس به، وقصَّ عليه قصته، وأفضى إليه بسرِّه، فطمأنه الشيخ، ورحب به، وقال: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ والصنات الفاضلة تُنبئ عن صاحبها.

طيب لقي طيباً، طبع لقي طبعاً كريماً وخلقاً أصيلاً.

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

رَغِبْتُ إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ أَبَاهَا أَنْ يَسْتَأْجِرَهُ؛ لِيَقُومَ بِمَا كَانَتْ تَقُومَانِ بِهِ؛ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَعَرَضَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ عَلَى مُوسَى أَنْ يَخْتَارَ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ زَوْجاً لَهُ، فَفَعَلَ عَلَى مَا شَرَطَهُ عَلَيْهِ ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢)

وأهل العِفَّة يَشْدُونَ الْحَلَالَ وَيَطْلُبُونَهُ. عَرَضَ الْوَلِيُّ ابْنَتَهُ عَلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ سُنَّةً قَائِمَةً. عَرَضَ شَعِيبُ ابْنَتَهُ عَلَى مُوسَى، وَعَرَضَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنَتَهُ حَفْصَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا عَرَضَتْ الْمُوْهُوبَةُ نَفْسَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

لِلْعَفَافِ لَعْنَتُهُ وَمَنْطِقُهُ، وَصِدْقُهُ وَصِرَاحَتُهُ.

وهذا نداء الله لنساء النبي: ﴿ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ أَتَقَاتْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٣)

وفي ذلك عِظَةٌ لِمَنْ يَتَعَطَّ، وَعِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ.

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) آل عمران: من الآية ١٠١.

(٢) القصص: ٢٧.

(٣) الأحزاب: ٣٢.